obeikandl.com

إجهاض جثة

الكتاب: إجهاض جثة
المؤلف: الشيماء عبد العال
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغوي: أحمد أسامة
رقم الإيداع : 25094/2016
الترقيم الدولي : 978-977-778-094-0

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 35860372 02
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikandl.com

إجهاض جثة

رواية

الشيماء عبد العال

نون للنشر والتوزيع

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى اللاشيء الذي تغلغل بداخلنا.. لولاك ما كانوا وما كنا.

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)

عالم الجثث الذي يهابه الجميع بلا استثناء وبلا مبرر حتى وإن كان أقرب الناس إليك ربما تخرج منه الروح تتبدل مشاعرك.. لماذا!! لا تدري سوى أنه في قرارة ذاتك تعلم أن الجسد ما هو إلا وعاء وما كان يجذبك إليه روحه التي كانت ترفرف بين جوانحه.. ضحكاته واختلاجات نفسه وربما دموعه ولكن عند السكون يتوقف كل شيء ولم يعد هناك شيء يعنيك سوى أنك ستفتقد كل شيء بغياب الروح.

ولكن الدكتور حازم كان مختلفًا لم يكن مهتمًا بالأحياء قط.. آمن أن وراء كل جثة حكاية تحكيها بعد موتها يعيش مع أدواته بحميمية زائدة حتى أنك عندما تراه معهم تعتقد أنهم أصدقاؤه.. ولم لا، فهم عالمه.. لم يكن محيطه يحوي الكثير.. مبضعه وقفازاته ومجهره ومنضدته وأيضًا قلمه وأوراقه.

على مدار سنوات عمله لم يكن ليقرر أن يكتب ما رآه ولكنه ذات يوم هزكيانه استثناء زلزل قواعده.

قرر أن يمسك قلمه وأوراقه بعدما أخذ إجازة من عمله لفترة من الزمن ليدون ما حدث معه قبيل تلك الاستراحة التي قرر أن تكون في مكان هادئ لا يعلم عنه أحد أغلق هاتفه وجلس في شرفته التي تطل على مياة البحر الهائجة يتأمل أمواجه التي تتلاطم أمامه.

سحب دفتره المرتكز بجانب جريدة قديمة لا تخصه ولكن ربما قد نسيها أحد من قاطني تلك الاستراحة نحاها جانبًا وهو يتساءل "ما حاجة الناس للأخبار المكررة

وهم في استراحة مع أنفسهم" مط شفتيه بلا مبالاة وأمسك قلمه بعدما جرده من غطاءه وبدأ في الكتابة وهو يأخذ نفسًا عميقًا ونظر في الفراغ يجتر أحداثه التي مضت.

في كل صباح أستيقظ وأنا في كامل نشاطي لعلي ألتقي بجثة جديدة، نعم جثة.. لا تتعجب فالجثث هيامي وعشقي، مريحة هي، صامتة ومستكينة.. تحدثني بصمت وأسمعها في خشوع.

تراك تتساءل من أكون، أُدعى حازم السيوفي طبيب شرعي، أنا شاب أو بمعنى أصح في آخر قطار الشباب ولو أصريت علي لأخبرتك أنني أربعيني.. تتساءل أيضًا تُرى ماذا يكون شكلي، شاب أربعيني تُرى ماذا سيكون.. خصوصًا لو علمت أنني فشلت في أن أكون زوجًا طبيعيًا أو أن تتعامل معي زوجتي بدون تأفف.. في نظرتها لي لم أكن أشعر بالارتياح لا أعلم لماذا أو أعلم ولكنني كنت أتجاهل هذا بإرادتي.. ولكنني لم أكن لأستطيع أن أحبها أكثر من جثثي المستكينة.

كنت دومًا أخاطب نفسي ولم أكن لأعلم أن خطابي لنفسي مسموعًا ومرسومًا على قسمات وجهي "لم لا تصمتين كجثة" ولعلها أمنية كل الرجال أن تصاب زوجاتهم بالخرس فكم كانت ستكون الحياة هادئة وجميلة، لم أجد بُدًّا من الانفصال بعدما ازدادت المشكلات وفترات عملي الغير منتظمة ومحادثاتي الهاتفية الممتلئة بالجرائم.

هكذا بمنتهى البساطة في إحدى المشكلات فتحت زوجتي فمها ولم تغلقه إلا وهي تطلب الطلاق.. طلبته فنالته، لم أكن آسفًا على ذلك فأنا مرتبط بكل جثة تنام أمامي على منضدة التشريح، فأنا أعمل في مصلحة الطب الشرعي.. لا تنقبض هكذا فلا تعلم كَمّ الأسرار التي يحملها هذا المكان.. في الشتاء يكون مكان مثالي لمن هم مثلي من يعشقون الوحدة والهدوء وفي الصيف يصبح الجو مفعم بالبرودة بعيدًا عن لزوجة وحرارة الصيف ورطوبته الخانقة، أعمل معهم وبهم لم أكن هكذا في بادئ الأمر.. كنت أهابهم قليلًا رغم أن مادة التشريح كانت أحبهم إلى قلبي ولكن عندما يكون الأمر أن تعيش وسط ثلاجات الموتى كان مرعبًا في بادئ الأمر ولكنني اعتدتهم وتأقلمت عليهم بل وأحببتهم.

أنام بعد يوم عمل مرهق، أحاول أن أختطف بضع ساعات لأريح جسدي.. ولكن ريثما أسلم جسدي لفراشي إلا وأجدهم ينادونني.. الجثث تبعث ورائي لأبحث بداخل أحشائها عن سبب موتها، لا أعلم لِمَ يهاب الناس الموتى فهم غير مؤذون على الإطلاق فأنا أجد أن الأحياء أكثر رعبًا من هؤلاء المسجونون داخل الثلاجات لا حول ولا قوة لهم.

في كل مرة أهتدي لسبب الوفاه أجدني وأنا أكتب التقرير.. وكأنني أكتب رسالة عن صديق أو حبيبة، نعم لن تصدق أنني أفتقد جثثي بشدة حينما أنتهي منها.. أفتقد الإنصات لها وتوجيهها لي وفي أي جزء منها أتحسس مكان مشرطي بعناية حتى لا تتألم.. نعم إنهم يتألمون ولهم عالمهم الخاص.. ولهم إشاراتهم ولكن ليس الجميع يفهمها.. فقط من يشعرون معه بالأمان!.

الموت ليس مبررًا يجعلنا نتعامل بحيوانية مع أجساد كانت تمشي على الأرض مزهوة بجمالها أو نجاحها أو حتى تملأ الكون بروح الطفولة التي تملؤها.. ومن يهينها لا تكشف له عن أسرارها وتجعله يقف أمام لغز كبير يقف أمامه عاجزًا، وتكشر له عن أنيابها وتفعل معه الأفاعيل.

ذكرت لك من قبل أن الجثث لا تؤذي، نعم لا تؤذي ماديًا ولكن يكفي أن تجعلك تصاب بالهلع لمجرد رؤية باب الثلاجة التي تقبع فيه ساكنة فتظن أنها تنظر لك حتى وإن لم تكن موجهة عينيها نحوك.. تستمع إلى أنفاسها وهي لا تتنفس ترى حركتها وهي لا تتحرك كسراب ثعبان يغط في رمال الصحراء تراه أحيانًا يلمع وأحيانًا أخرى تشعر أنك تهذي بما رأيت هكذا هم يتنفسون ويتحركون ولكن خارج أجسادهم المائلة للزرقة.. كما أني اكتشفت فيما بعد أنهم ليسو دائمًا صادقون أو بالأحرى يمارسون لعبة الاختباء كنت دومًا أجيد تلك اللعبة معهم ولكن لم أكن أعلم أنهم من الممكن أيضًا أن يمتهنون الخداع ليس بالضرورة عندما تفكر أن تعبث معها فقط، ولكن ربما تكون عادات لهم أو ربما يكون هذا مزاحهم لا أعلم حتى الآن ما قد حدث!.. فلا تفكر أن تعبث أو تتلاعب معهم أو حتى تمزح فلن تستطيع أن تجاريهم فخذ حذرك جيدًا.

ربما ظننتني أهذي عندما أخبرتك أنها تحدثني وتلهمني أين وكيف ومتى أعمل بل وأستأذنها أيضًا وأناجيها لتفصح عن مكنوناتها الخفية، لا يا صديقي لا تظن بي ذلك.. فأنا مؤمن بذلك إيمانًا كاملًا.. تأتيني في أحلامي فأهب واقفًا لا أعلم كيف أرتدي ملابسي ولا كيف استقللت سيارتي ولا كيف وصلت إليها وكأنها سَخَّرَتلي كل شيء من أجل أن تخبرني بشيء يسكن بداخلها تريدني أن أعلمه، ليس عندي أي دليل علمي على ما أقول ولكن ثق في حدسي فمن رأى ليس كمن سمع فثق تمام الثقة بما أقول، هل تريدني أن أدلل لك على ما أقول.. حسنًا.

كنت أسكن في حي بعيد عن مصلحة الطب الشرعي في شقة مستقلة.. فكما أخبرتك من قبل فأنا أعيش وحيدًا لوفاة أبي وأمي ونظرًا لأنني لم أحظ بأخوة فتملكتني الوحدة وأحببتها فأنا وحيد بالفطرة فوحدتي لم أغتصبها من براثن أحد هي مطبوعة علي وكأنها خلقت لي وحدي.

مسكني كان مسكن العائلة بالطبع في مبني ليس متهالك على الإطلاق ولم يظهر به شق واحد حتى في زلزال 92 وكنت حينها في بداية المرحلة الثانوية، في وقت لاحق كنت أعمل على جثة لامرأة ما بين الخمس وعشرون والثلاثون، لم أكن أعلم من أين أبدأ كانت تحاول أن تخبرني ولكن لم أكن لأسمع كنت في بداية عملي.. شاب أهوج بعض الشيء أذهب متأخرًا إلى عملي فكانت ثورة الشباب لا تزال تلعب بألاعيبها معي تعبث بي وأعبث بها.. لا أعلم ماذا حدث في ذلك الوقت سوى أنني وجدت نفسي وأنا أسير بغير اهتداء ووجدتني أقف أمام مكتب سمسار عقارات وبغير إرادة مني وجدتني أجلس وأطلب مشترٍ لشقتي التي أقطن بها وأطلب منه أن يجد لي شقة في شارع بيرم التونسي بحي السيدة زينب.. وكأنني منوم مغناطيسيا.. لن أنسى تعابير وجه السمسار من الطلب وكيف أطلب الانتقال من الحي الراقي الذي أعيش فيه على حد قوله إلى حي السيدة زينب وخصوصًا شارع بيرم التونسي.. عشرات علامات الاستفهام وجدتها مرسومة على وجهه.. بل أنا أيضًا كنت في تساؤل.. لم أستفيق إلا وأنا أجاوب على سؤاله.

- لماذا بالتحديد شارع بيرم التونسي؟؟
- لأنه بجانب عملي فأنا طبيب شرعي.
- اللهم احفظنا.

لم أبالي بما نطق ولا كَمّ الامتعاض الذي ارتسم على وجهه ولكنني ذهبت لمكان آخر بعقلي وعدة أسئلة تتصارع داخل عقلي أراهم أمام عيني (ترى ماذا أفعل؟؟ وما الذي جعلني أفعل ذلك؟ وما هذا الجنون الذي أنا فيه؟؟). فلم أجد الإجابة إلا على وجه تلك الفتاة التي كان عليّ العمل بها.. وكأن على وجهها ابتسامة رضا رغم الشحوب الذي يملؤها، كانت تريدني بجانبها.. أن لا أهملها ولا أتأخر عليها وكأنها سحبتني من يدي وجعلتني أجلس أمام هذا الرجل لأقول له ما قلت، وبالفعل انتقلت إلى مسكني كانت شقة بسيطة لم أكن أحتاج للكثير بها أخذت ما أحتاج إليه من شقتي القديمة ومالم أحتاجه تخلصت منه وبهذا كنت بجانب جثتي لا أتأخر عنهم.

ومنذ ذلك الوقت أيقنت أن لهم قوة خفية لا يستهان بها، وخصوصاً لو كانت جثة امرأة فللنساء قوى مستترة أحياء كانو أم أموات.. لم أكن أعتقد أن للمرأة كيدًا حتى وهي جثة ولكنني أيقنت ذلك فبموتها لا ينقطع كيدها.. هيهات أن تعتقد ذلك، حقًا لا أعلم أهو كيد أم أن الحياة قد تكون ظلمتها بأي شكل من الأشكال ولم تستطع أن تنتصر لذاتها حية فتنتصر وهي جثة لا أعلم ولكن يقينًا إنهن ينتقمن بكامل قوتهن جثثًا كانو أم أحياء.. فانتبه لهن جيدًا وتابع معي قصتي فستجد بها الكثير مما يبرهن على ما أقول فلا تتعجل بالحكم وتنعتني بالجنون.

***

(2)

لم يكن يهوى الشتاء لأنه برغم برودته يملؤه الدفء، أو أنه ملاذ العاشقين ودومًا تبدأ قصص الحب في هذا الفصل.. ولكنه لم يكن ليراه سوى غيومًا تُذَكِّرُهُ بالليل بشدة فهو يؤنس وحدته ولا يجد له مكانًا سوى فيه، عندما كان يأتي فصل الشتاء وتغيم الأجواء كان ينتعش عندما لا يرى ضوء الشمس كم يكرهها تشعره كأنه تحت الأضواء التي يكرهها كأنه مصاص دماء يهاب الشمس حتى لا تظهر بلورات الكريستال على بشرته الثلجية.. لم يكن ثلجيًا بل كان كمعظم المصريين.

إنه مراد زهران.. شاب في منتصف العقد الثالث، قمحي البشرة ذا شعر يقف في المنتصف بين المجعد والمسترسل يحافظ دومًا على ثباته (بجيل) يضعه كل يوم صباحًا ولا يترك خصلاته إلا تحت مياة الدش الساخنة حتى تذيبه من عليه، يحاول دومًا أن يكون ذاك الشاب الأرستقراطي يهتم بالتفاصيل التي تحافظ على ما يسمى بـ (البرستيج) يضع نفسه في قالب محدد ولا يسمح بالخروج خارجه أيًا كانت الظروف أو المتطلبات، لا يتخلى عن ربطة العنق الخانقة ولا بحلته المنمقة مهما كلفته.

بالطبع فهو ذاك الطالب الذي حافظ على درجة الامتياز طول سنوات دراسته وثابر حتى يكون معيدًا في نفس ذات الجامعة وتنفس الصعداء عندما نال مؤخرًا الدكتوراة وأصبح هذا الشاب الذي يتمناه بتفرده حينما أصبح دكتورًا بالجامعة رغم حداثة سنه، كان متحفظًا حتى مع نفسه.. أحاديثه الداخلية لا تبوح بالكثير وكأنه يقمعها ويضعها في إطار محدد وكأنها ستظهر على السطح وستفضحه يومًا ما.

يرتدي نظارة طبية رقيقة المظهر تظهر من خلفها عيناه المتسعة أصغر قليلًا مما تبدو عليه من دونها فتعطيها مظهرًا جذابًا يليق بمركزه الاجتماعي كدكتور في جامعة آداب عين شمس، حتى ذقنه المحددة وشاربه المنمق المتصل بذقنه التي تغطي فكه السفلي أعطته مظهرًا مميزًا يتصف به الأطباء النفسيين التي أصرت السينما المصرية والعالمية أن تظهرهم به دومًا.

هو دكتور مادة علم نفس في الجامعة فكان مثلما أراد أن يكون مظهرًا وشكلًا وتنميقًا، لا أعلم حقًا لِمَ يصر من هم مثل مراد أن يكونوا بمثل هذا المظهر التقليدي، هل لأن السينما أظهرتهم لنا بمظهر مثالي للرجل الذي يحترم العلم، الرجل الثابت أو (الثقيل) لا أعلم حقًا هذا أمر محير بالنسبة لي، وبالرغم أنه ليس طبيبًا بل دكتورًا جامعيًا إلا أن ما يدرّسه انعكس عليه لم يكن ينقصه إلا غليونًا ينفث منه دخانًا يُعمي من حوله وليته فعل بدلا من أن يقتلهم!.

لم تكن شخصيته قوية بالشكل الذي يظهره بل كان دومًا يشعر بالاهتزاز يتغلغل داخله، لا يعلم ما سببه أو يعلم ويأبى أن يعترف به في قرارة نفسه، ربما لأنه الابن الأصغر لثلاثة أخوات كان هو لهم (ديك البرابر) مثلما يقولون، حيث تشبع من طباعهم الهادئة الأنثوية الطباع، وكونه الأخ الأصغر لهم فلم يكن يستطيع أن يفرض عليهن رأيًا فقد جاء بمثابة (غلطة) لم تكن بالحسبان، كانو يكبرونه بأعوام كثيرة فأخته الكبرى كانت تكبره بخمسة عشر عامًا والتي تليها تكبره بثلاثة عشر عاما والتي تليها الوحيدة التي كانت تكبره بأربع سنوات فقط، فكان (آخر العنقود) على حد قولهم المدلل.

وكلما كان يكبر في العمر كانت أخت من أخواته تَنسَلُّ من بينهم وتتزوج تاركة منزل العائلة.. فرغ المنزل من أختيه الكبيرتين وتبقت فقط الأخت التي تكبره بأربع سنوات، تعلق بها كثيرًا، فكان على غير أقرانه من حيث النزاع مع الفتيات لا يعلم لماذا ولكنه كان يحبها بشدة إلى حد الجنون كانت تبهره في كل شيء كانت جميلة وتدعى سارة كانت تسره في كل شيء كان دومًا يداعبها ويقول لها أنتِ سارة وأنتِ بالفعل سارّة.. كانت تضحك وتحتضنه وتلف به أرجاء المنزل.

عندما اشتد عوده وهو في الخامسة عشر وأصبح يعادلها طولًا كانا يتراقصان رقصة كلاسيكية يضع يده على خصرها وتضع يدها الرقيقة على كتفه ويلفان ويدوران كحبيبين.. عندما يراهم أبيهم على تلك الوضعية كان ينهرهم بشدة ويقول الكلمة المأثورة (ميصحش كده إنتم إخوات)، عجبًا وهل هناك ما يمنع أن يمرح الأخوان!!

مجتمعاتنا الشرقية تمنع أن يقترب الأخوان من بعضهما البعض أو أن يفرط كليهما في إظهار مشاعره للآخر.. يعد عيبًا وجرمًا فظيعًا لا يغتفر، نعلم أن وجوب الفصل عندما يبلغان الحلم بين الأخوان واجب، ولكن الحب بينهم لا يعد جرمًا، كان زهران الشريف ضابطًا بالقوات المسلحة.. لا يقبل تهاونًا أو انفلاتًا كان شخصًا منضبط بكل المقاييس التي تعني الإنضباط ورغم عدم تواجده المستمر وسط أسرته إلا أنه كان الغائب الحاضروكأن زوجته كانت عسكري المراسلة الذي يتركه في المنزل أثناء غيابه كل شيء كان على دقة الساعة فلم يكن ليقبل أن يكون للعاطفة مكانًا في منزله أو سكنته العسكرية، لم يكن ليستطع أن ينفصل عن كونه ضابطًا وعن كونه أب يمارس حياته مع أبناءه بإريحية هكذا رَبَّاهُم كل شيء بحساب.. مما ساهم في شخصية مراد التي كانت أشبه بالتعنت والعناد وانعكس عليه كل شيء فيما بعد، ريثما بلغ وظهرت علامات الرجولة عليه لم يعد مسموحًا له أن يقترب من أخته التي سبقته بانخراط جسدها تحت معول النحات الذي نحت تقاسيم جسدها وابتعدت المسافة أكثر بينهما فيما بعد.. شعر مراد أن المسافة بينه وبين أخته أصبحت هوة سحيقه فأصبح الكلام بينهما معدومًا إلا بوجود الأهل ومما زاد الهوة أكثر خروج الأب على المعاش عندما وصل لرتبة عميد فأصبح لا يفارقهما وبالطبع ممنوع الضحك وهو جالس فهو انتهاك لرمز الأبوة الصارم.

كانت سارة فرحة بقدوم أخٍ لها.. وعندما رأت بطن أمها تتكور وأخبروها بأنها تحوي طفلًا فرحت وتمنت أن يكون ذكرًا لأن الإناث لا يهتمون بها على حد عقلها الطفولي مما رأته من أختيها كانت تأمل في وجود أخ حنون بجانبها يلعب معها

ويشاركها أدق تفاصيلها فكانت أخواتها دائمتي القرب من بعضهما لاقتراب سنهما وكانت دومًا بينهم غريبة لأفكارها الطفولية الساذجة التي كبرن عليها فكانت لا تزال في الرابعة وهن قد كبرن وبدات أجسادهن تتغيروكبرن على اللعب كطفلتين فكانت اهتماماتهن تتغيروهي لا تزال طفلة.

كبرن جميعًا.. ومرت السنوات وجاء ذلك اليوم الذي أصبحت فيه سارة عروسًا يأتيها الخُطَّاب.. كان مراد حينها في السنة النهائية من الجامعة.. لم يصدق عندما رأى المنزل وقد تبدل حالة وازدحم بأختيه الأخرتين بأطفالهما الذين يهدمون كل ما عكفت الأمهات على ترتيبه فتساءل حينها ماذا يجري.

فأجابه الأب بلهجته الصارمة التي لا يتخلى عنها.

- سيأتي اليوم خاطب ليطلب أختك للزواج.

صمت ولم يتكلم ولكن بداخله كان العديد من الكلمات.. هناك الكثير من الأحياء ولكن تموت الكلمات على أعتاب شفاهم وتظل تتصارع فقط في عقولهم يبدون ككتل صخرية جامدة ولكن تقتلهم صراعاتهم الداخلية.. دخل وأغلق غرفته عليه ودرات التساؤلات في عقله.

لمَ يعاملونه ككم مهمل أوعلى أنه لا يزال طفل لا رأي له؟! متى جاء هذا الخاطب ومتى تشاورو في أمره ولمَ لم يطرح عليه هذا الأمر وسارة لماذا لم تخبره خلسة من أبويه مثلما كانت تفعل لِمَ انفصلنا بهذا الشكل أم أنها أصبح لها عالمها الخاص ولم تعد بحاجة إليه.. انتفض من على فراشه وضرب على فخذيه غاضبًا مما يجري حوله، ظل في غرفته منقطع عما كل مما يجري حوله وكأنه يعلن اعتراضه أن يتم تجاهله بتلك الطريقة المهينة لرجولته.. لم يأبه به أحد إلا عندما اقترب موعد وصول الخاطب عندما طرقت أمه باب غرفته قائلة:

- ارتدي ملابسك فقد اقترب وصول الضيوف.

هَمَّ أن يتكلم ويخبرها بتساؤلاته ولكنها لم تمهله لانشغالاها بأخته التي كانت تناديها على عجل، جلس على فراشه وكأنه لم تعد قدماه تحملانه واعتصره بكلتا

كفيه وهو يجز على أسنانه حتى ظن أنهم قد تكسروا من فرط انفعاله. لم يجد مخرجًا من كل هذا سوى الامتثال لما أُمر به.. قام متثاقلًا يفتح خزانة ملابسه لينتقي منها قميصًا وبنطالًا وربطة عنق مناسبين لتلك المناسبة.. لم يهتم كثيرا بما سوف يلبس بَدَّل ملابسه وروحه تائهة في ابتعاد سارة الوشيك عنه فحتى وإن كانا مبتعدين ولكنها كانت أمامه يسعد لضحكها ولحكاياتها المقتضبة ولكن فيما بعد سوف تكون مع رجلها التي اختارته أو التي استبدلته به.. تجمع الدم في رأسه شعر به يغلي ولكنه استفاق على دقات الباب المزعجة فخرج من غرفته ليرى من يكون ذاك الرجل وللنظرة الأولى الكثير من المفاهيم..

هناك أحكام مسبقة تجد روحك تحت وطأتها بلا مقاومة فلم يجد مراد بُدًّا من أن تظهر تلك النظرة العدائية على مُحَيَّاه لمجرد أن تلاقت أعينهما سويًا بعدما جاهد ليفك عقدة ذراعيه أمام صدره لتتلاقى أعينهما في فتور غير مبرر للخاطب الذي تجاهل الأمر بانشغاله بالباقين مقررًا تجاهل مراد مما زاد الأخير حنقًا.. ولكن هكذا تجري الأمور إذا بادرت بالعداء.

والآن سارة في بيت زوجها ومراد يجلس حزينًا على فراقها، آلمه ابتعادها عنه بشده لم يكن يعلم أنها كانت الهواء الذي يتنفسه، تتملكه الغيرة عليها عندما يراها مع زوجها يكاد عندما يراه يكيل له اللكمات لأنه أخذها منه، وانعكس ذلك عليه حتى أنه كان يرفض كل عروس تعرضها عليه أمه بحجة مستقبله العلمي وأهدافه، أما الآن وقد نال مبتغاه، فلِمَ الانتظار!!

حتى وجدها تجلس بين صفوف طلابه، لا يعلم ما الذي جذبه لها ولكن هناك شيء خفي كان فيها رغم أنها على نقيضه تمامًا.. يتجاذب الأضداد دومًا وكأنهم قطع من (البازل) هناك شيء ما يجذب كل طرف للآخر لتكتمل الصورة ذات يوم، ظل يراقبها كان يسمع ضحكاتها تارة وفي أوقات مختلفة كان يجدها جامدة كتمثال لا يتحرك لفت انتباهه الحزن الكائن في عينيها أحيانًا كثيرة وتغير مزاجها للنقيض في أحيانٍ أخرى إنه الاختلاف دومًا عامل جذب.

كانت دومًا تجلس في المدرج الثاني كانت تلحظ نظراته المختلسة من خلف نظارته الطبية ولكنها لم تعرها يومًا اهتمامًا أو كان هناك ما يشغلها ويجعلها تتجاهلها في بعض الأوقات.

وكان يزعجه ذلك كثيرًا لدرجة تشتيت الانتباه وكلما تلجلج في شيء يشرحه كان يرى ابتسامتها المنتصرة المزهوة بنصرها عليه في أنها جعلته يذهب بعيدًا عما هو فيه وكان يقابلها هو بالحنق.

تبًا لأفاعيل الفتيات فتصرفاتهم تثير جنونه.

لم يكن يعلم أنه سيتعامل معها بندية فائقة وصلت حد التحدي بينهما ففي كل التفاتة منها كان ينادي عليها.. فريدة ماذا كنا نقول.. فكانت تزيد من حرجه وتنص عليه ما قد قاله للتو بمنتهى التركيز، وضع تحت اسمها خطين وَحَدَّث نفسه "حسنا هكذا إذن يا فريدة قاسم سنرى من المنتصر".

فريدة كانت في السنة النهائية في الجامعة طموحها لا ينتهي ولكن كان هناك دومًا ما تخفيه بداخلها لم تكن سعيدة بنظرات د. مراد لها.. الحقيقة أنها كانت تتحداه بشكل خفي.. ماهي دوافعها لتتحداه؟! أم تُرَاهُ تحديًا سابق لأوانه أم تراها تهابه في بواطنها لم تكن تعلم أيًا من الذي كان يخبئه القدر لها فتركت السفينة تسير كما هو مقدر لها فلم تكن مهتمة بأي المراسي سوف ستسقر.. همستها بداخلها قائلة (فليحدث ما يحدث).

***

(3)

كيف للمرء أن يفكر أن يعيش كزهرة يحيط بها كل شيء عدا الاحتواء وكأنها انعزلت عن الجميع وَتَبَدَّلَ كل شيء ليصبح صحراء بلا صحراء تعيش في خيالها الحياة التي تريدها ليس الواقع الذي تعيشه هكذا كانت حياة فريدة قاسم.

تلك الفتاة التي في مظهرها التحرر ولكنه كان لامبالاة أكثر منه أي شيء آخر، ذات بشرة صافية قمحية البشرة مشبعة بملامح مصرية رائقة يزين وجهها عينان بلون العسل عندما تراها تعطيك ألوانًا لا تعلم ماهيتها، أنف دقيق وشفتان لا هي بالمكتنزة ولا هي رفيعة, متوسطة مرسومة ومحددة بريشة فنان.. يزين ذقنها طابع الحسن حتى أسنانها متراصة في نغم دقيق، ذات شعر مموج تتركه على سجيته لا تعدل به شيئًا، ترتدي دومًا ملابس مريحة بنطلون و(تي شيرت) أو سترة شتوية رقيقه ولا يفارق قدمها الأحذية الرياضية البسيطة.. لم تكن قامتها قصيرة ولا هي بالطويلة كانت تتميز بأنها وسط بين قريناتها.. بساطة روحها أهم ما يميزها لم تكن تأبه لأحد تعيش بعفويتها لاقتناعها أنك عندما تكون عفويًا هذا أهم ما يميزك.

إنها الفطرة يا سادة التي فطرنا الله عليها بعيدًا عن تكلف البشر وإثقال الروح بأعباء لا طاقة لنا بها الفطرة التي صبغنا عليها التي يسمونها في هذا الزمان سذاجة.. ولكن فريدة لم تكن بالفتاة الساذجة كانت فقط تتصرف على سجيتها وبصبغة الله وهل أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون.

ابنة لأبوين مستواهما الاجتماعي ليس بالسيء لا هو المرتفع ولا هو المنخفض بالمعنى الدارج (مستورين) ولها من الأخوات أخت واحدة تصغرها.. لم تكن تشعر سوى بأنها الأخت الكبرى التي عليها ما عليها.

نشأتها صارمة وازدادت حدة التعاملات بعدما حدث ما حدث لغادة الأخت الصغرى لفريدة التي تصغرها بعدة سنوات.. ولكن لا يخلو الأمر من بعض الطفولة العشوائية وفي غفلة من فريدة عن أختها انزلقت قدم غادة وهي في عمر السنتان فارتطمت رأسها بالأرض ارتطامة كبرى فانفجرت من رأسها دماء لا حصر لها وبعد أن انشغل الأبوان بابنتهما الصغرى وإيداع فريدة عند الجيران ريثما ينتهيا من رحلة العلاج التي ظنا أنها ستنتهي ولكنها لازمتهم طيلة حياتهم.. أسفرت الأشعات أن غادة أصيبت بعد السقطة بكسر في الجمجمة أجهز على كل أمل لها أن تحيا حياة طبيعية مما زاد الأمر سوءًا على الشقيقة الكبرى التي أهملت في الاعتناء بأختها.. كيف يمكن لطفلة في السادسة أن تعتني بطفلة أخرى.

ومنذ ذلك الوقت وفريدة تعيش في فقاعتها الهوائية التي إن انفجرت بفعل اهتزاز روحها تجد خارجها جحيمًا لا ينتهي أصبحت تتحاشى التلاقي مع أمها إن شعرت بالجوع ووجدتها داخل المطبخ تعود أدراجها في هدوء حتى لا ترميها بسهم من سهام عينيها التي تؤلم روحها وتمزقها ومع كل رمية سهم كانت تهرول إلى غرفتها تجهش بالبكاء وتحدث ربها بصوت يئن من الوجع "لم أكن أقصد ما حدث وليس لي ذنب فيه فلِمَ تصر أن تحاسبني بما أعيش فيه الآن" كانت تدعو بتلقائية الأطفال وبراءتهم بعيدًا عن ما يصح ولا يصح كل ما تعيه أنها طفلة ولكن بمرض غادة ماتت روحها الصغيرة داخل تلك الجدران الباردة، تعيش في غرفتها وحدها تكبر وتكبر معها أحلامها أن تترك سجنها وتعيش حياة أخرى بروحها التي قاربت على الموات بلا أدنى ذنب منها.

كانت دومًا تنظر لأمها أنها مثال للأم الضعيفة التي لا تقوى أن تعترض في وجه أبيها لم تكن تسمعها تنبس سوى بكلمة (حاضر) ليس من باب فقط أنها مريحة ولكن يتبعها تطبيق لا متناهي، كمان أنها كانت لها عالمها الخاص بعيدًا عن ابنتها الكبرى عالم آخر تختلقه فقط لتتحاشى صب اللعنات عليها لم تكن تراها فريدة إلا منشغلة بالأعمال المنزلية أو حتى وهي جالسة أمام التلفاز تحيك شيئًا في يديها ربما

جوربًا مثقوبًا أو حتى (الكانفاه) الذي برغم ضعف نظرها تعلمته خصيصًا من أجل أن تضع كل همومها في قطعة قماش باهتة اللون تطرز عليها ألوان لا تعرف ماهيتها.

لم تكن تحتاج فريدة منها سوى احتضان أو بضع ربتات على كتفها عندما تشعر بالحزن لمجرد أن دميتها قد انكسرت ولكنها لم تجد إلا فتور شديد، أو أن تخبرها أنها إرادة الله وليس لكِ ذنب بها، أن تهدئ من روعها وتنزع الخوف الذي ترعرع بداخلها كزهرة سوداء لا تعلم موطنًا لها سوى بين جنباتها ولكن لم تجد سوى أوامر ونواهي وعندما تعترض فريدة على شيء تسمع من أمها محاضرة في الطاعه العمياء لأوامرها هي وأبيها باعتبارهم أدرى بمصلحتها وواجب عليها الإذعان لكل ما يقولانه لها.

ترى لو تربينا على مبادئ مختلفة هل سنكون مختلفين هل سينشأ نشءٌ يعلم كيف يتخذ قراراته وهو مقتنع أنها صحيحة.. متى سنتخلص من التبعية العمياء، متى سيعلم الآباء أنهم يربون أبناء لا قطيع من الغنم يسيره حيث يريد وكيفما يشاء، ربما في زمنٍ آخر ولكنه ليس هذا الزمان.

بعد كل مشادة تحدث بين فريدة وأمها كانت تنزوي في غرفتها تبكي بصمت بجفون ملتهبه وروح محترقة.. إحساسها بأنها تكبر ضعف عمرها يثقلها، لم تكن تحب القوالب الثابتة التي تفرض عليها، تشتاق للحظات حنان مفقودة ذهبت من بين يدي أبيها كحبات مسبحة قديمة انفرطت ولا سبيل لعودتها، تغمض عينيها على فراشها الصغير ضامة ذاتها بإيديها وهناك سؤال تختلج به روحها "ترى متى احتضنني أبي وأمي بقوة حتى وإن شعرت أن بضمتهما ستتحطم أضلعي؟؟ " وما إن لا تجد إجابة لهذا السؤال حتى تجد روحها تائهة وتبدأ في الحنق على كل شيء.

تسلط الأب وقسوته الظاهرة وعدم إبدائه لأي ذرة حنان لها يمزق روحها وانشغاله الدائم في عمله ليوفر العلاج الذي كُتب عليه لأختها العليلة وخنوع أم تشعرها بالذنب كلما نظرت إليها فهي لا تريد من الحياة سوى أن تعيش مع إيمان كامل بداخلها أنه يفعل كل ما يتراءى له وليس هذا فحسب بل أنه يفعل على الدوام ما هو صالح وليس عندها أي رغبة في تعديل أي شيء بحياتها فقد انطفأت فرحتها

بمرض ابنتها التي أصبحت عروسًا بلا عقل ونوبات صرع متتالية تفقدهم صوابهم لم ينتبها أنهما قد ظلما فريدة بما هو مقدر.

أي بشر هؤلاء الذين يعتقدون هذا وهل الإنسان خلق ليجسد الكمال على الأرض، من مفهوم هؤلاء الآباء أن الحنان يفسد الأبناء.. حقًا هؤلاء مغيبون، الأبوة معانٍ كثيرة ليس فقط رعاية وتوجيه، هو أمان وحماية وحنان وغاية ما تتمناه أي فتاة مَثَل أعلى وأول فارس أحلام يداعب خيالها هو أبيها.

لم يكن لها ملجأ منذ طفولتها سوى علياء التي كانت تقضي معها معظم أوقاتها هربًا من نظرات الاتهام التي تحيطها من كل جانب.. أحبت المكوث معهم في المنزل في أوقات اللعب والاستذكار في المرحلة الإعدادية. استهوتها تلك الأسرة بكل ما فيها من حنان كانت تشاهدهم مثالًا يحتذى به حتى النصائح التي كانت تتمنى أن تسمعها من التي كانت تحتويها في رحمها ولم تجد احتواءًا منها عندما خرجت منه سوى بضع سنين ذكرياتها بهم تبخرت بفعل آثامها التي يتهمونها بها.. عوَّضَتها علياء عن كل شيء فكانت لها بمثابة الأخت والصديقة، وجدت بداخلها حنان أم واحتضان لكل ما تحتويه من أوجاع أثقلت كاهلها الضعيف كانت كل واحدة منهما مرآة للأخرى.. حتى تكاد تكون ملامحهما انطبعت على الأخرى.. تراها ملامحهم أم انعكست أرواحهم على ملامحهم الصغيرة.

حتى أتاهم الشباب راسمًا أنوثتهم في المرحلة الثانوية.. لم تكن لتنسى فريدة أيًا من مواقف علياء التي كانت دومًا تتشبث بها لتقيم انكسار روح محبوسة داخل فقاعة تحاول أن تحميها حتى لا تنفجر الفقاعة وتهرع روحها إلى بارِئها.. ولكن ربما لأنه فقط لم يحن بعد طيران تلك الروح إلى السموات.

اشتد عود الفتاتين ودخلا الجامعة سويًا بعد مناقشات عديدة مع أبيها الذي كان رافضًا دخولها الجامعة بحجة أنه لم يكن قادرًا على علاج ابنته الذي يكلفه الكثير من النقود ولا يستطيع أن يتحمل تكاليف الجامعة أيضًا.. لولا تدخل والد علياء في تلك المسألة مما زاد حنق قاسم على ابنته التي وضعته في موضع الموظف

الضئيل الذي يعمل عملان وبالكاد يكفي احتياجات أسرته.. استجاب إلى مطلبها خجلًا بعدما أخبره أن فريدة سوف تعمل خلال الدراسة لتساعده في نفقات جامعتها وأنه سوف يساعدها على ذلك.. لم يجد مفرًا فأذعن لتوسلاته على مضض لاقت على إثره فريدة توبيخًا لا نهاية له ولكنها لم تجادل كثيرًا فقد كانت تشعر أنها تستند على دكتور ماهر والد علياء الذي تشعر معه بالأبوة أكثر مما تشعر بها مع أبيها الذي جاءت من صلبه.

لم يكن لفريدة أي علاقات عاطفية في فترة دراستها الجامعية سوى بعض الهمهمات بينها وبين صديقتها كانت تهاب أي من هؤلاء رغم أنها كانت تحتاج إلى تلك العلاقة حتى وإن كانت تعلم أنها مؤقتة ولكن هناك شيء ما يجعل قلبها يرتعد، فكلما رأت رجلًا كانت تراه في هيئة أبيها الصارمة، وبعد أن تعيش معه في خيالها قليلًا تبدأ في تحديها له أو حنقها الغير مبرر وكأنها ستنتقم من أبيها في ذلك الرجل حتى وإن لم يفعل لها شيئًا.

حاولت كثيرا علياء بمساعدة أبويها أن تجعلها تعيش حياتها كأي فتاة في عمرها ولا تتعامل بتلك العدائية التي لا سبب لها ولكنها في كل مرة كانتا تتحدثان في هذا الأمر كانت ترتعي داخل أحضان علياء وهي تجهش في البكاء كأنها لم تبكي أعوامًا فلم يكن على علياء إلا أن تتوقف عن الحديث وتضمها إلى أن تهدأ كل ذراتها المنتفضة وقبلة حانية على خصلات شعرها فتستكين كقطة وجدت ملاذها.

إلى أن بدأ يلفت انتباهها دكتور مراد، كان في نظرها شابًا في سن الخمسين لمظهره المبالغ فيه حتى نظراته لها كانت تدفعها لتحديه بأي شكل.. كانت تراه وهو يتبعها بنظراته أحيانًا تراها نظرات عدائية لا تعلم هل يرئ لها أم هي كذلك وأحيانًا أخرى تجدها نظرات إعجاب وولع لا متناهي. على أية حال.. لم يكن ليلفت انتباهها كثيرًا فقط كانت لعبة مسلية أن يستشيط أحد غضبًا منك فغضبه في حد ذاته بمثابة انتصار معلن، كان مراد دومًا يتعجب من التصاق الفتاتين ببعضهما البعض ولكن ذلك لم يؤثر على تقدم فريدة في الدراسة والتوفيق بينها وبين عملها الذي اختاره

لها الدكتور ماهر في عيادته كممرضة كما كان يأخذها معه مركز التأهيل النفسي عندما يستدعونه بصفته طبيب باطني لمتابعة بعض حالات المرضى النفسيين الذين يعانون من أمراض أخرى غير التي سكنت عقولهم.

بعد مرور فترة ليست بالقصيرة وهروبها وانفلات مشاعرها من بين يديها على إثر التغيير الملحوظ الذي وجدته في مراد بعدما أصبح يعاملها برقة أضاءت ذاك النور الخفي في نظرة عينيها.. لم تكبر بالحد الكافي لتعلم إن كانت مصطنعه أم طبيعية ولكنه لم يكن يعاملها معاملة الند بالند وكان هذا يكفيها، تراه اختلف في مظهره بعض الشيء، لم تعد تجده يرتدي حُلته التي يثقل بها كتفيه رغم احتفاظه بربطة العنق ولكن عدم ارتداء الحُلة أكسبه مظهرًا خاصا وكشف بعض الشيء عن جسد جذاب، لا تعلم لم هو الذي انجذبت له رغم أنه يكبرها بخمسة عشر عامًا تراه يعوضها عن ذاك الحنان المفقود أم أنها تدابير القدر التي لا مفر منها، انتبهت له كثيرًا وجذبتها رقته ونظراته المختلسة إليها كانت مميزة بهدوئها، وانتظرت أن تضيق المسافة بينهما وباتت تترقب كيف سيحدث ذلك!!.

***

(4)

كان كل شيء طبيعيًا.. كنت أعتقد أنني قد توصلت إلى كل شيء بروحانيتي مع الجثث متبعًا كل ما يجعلها تضع ثقتها فيّ، أعاملها برفق وأهيء لها الجو الذي أعتقد أنها تحتاجه أجعل الموسيقى الهادئة تنتشر بين جنبات غرفة التشريح وأستأذنها قبيل الشروع في العمل بها ولكن أيقنت مع تلك الجثة أن ليس كل الجثث من الممكن أن تفضي بمكنوناتها بسهولة.. رغم أنه لم يكن بالسهل عليّ أن أكسر كل قواعد غرفة التشريح.. زملائي كانو يخبرونني أنها أشبه بغرفة نوم مكيفة معدة لليلة خاصة، وأنا كنت أخبرهم كُلّ الليالي خاصة مع شيء تحبه.

ذات يوم كنت أجلس على مكتبي كالمعتاد وإذا بهم يأتون لي بجثة جديدة يشتبهون أنها قضية قتل مبدئيًا سبب الوفاة كان إسفكسيا الخنق.. وقفت أتفحصها قليلًا.. شابة في مقتبل العشرينيات، ذات بشرة قمحية مائلة للسمرة قليلًا لها شفتان رفيعتان باهتتان من أثر الموت، شعرها مائل للسواد ولم يكن مجعدًا ولكنه مهمل.. ملامحها كانت توحي ببؤس اكتملت أركانه ملابسها ممزقة ورغم بساطتها إلا أنها بها عبق خاص.. نظرت إلى الملف الخاص بها وجدت اسمها نَيِّرَة.. عدت بالنظر إليها من جديد ثم بدأت في تجهيز الجثة للعمل بها.

تتصارع الأفكار داخل عقلي، فهذه ليست المرة الأولى لي التي تتمدد أمامي فتاة في ريعان شبابها على منضدة المشرحة.. ولكن هناك لغز ما في تلك الفتاة.. دومًا ما تأتي الجثث إليّ وكأنني منقذها الوحيد في تلك الحياة، أرى أرواحها تتقافز أمامي وتلف وتدور وكأنهم راقصي باليه محترفين بزيهم الأبيض الشفاف.

كما أخبرتكم يهاب الناس دومًا الأرواح برغم أنها بسيطة وخفيفة متخلية عن أعباء الجسد ولكنها تختار مع من تتعامل ببساطة ومع من تتعامل معه برعب، إن سألتني عن وجهة نظري في الأرواح سأجيبك أننا نرى الأرواح بالقبح الكائن بداخلنا ليس أكثر هكذا بمنتهى البساطة.

تراودني تلك الأفكار أمام كل جثة تستلقي أمامي ودومًا ما يوقظني منها عم أحمد.. أعلم أنني لم أخبرك عنه من قبل إنه عامل المشرحة دومًا ما يعيد لي عقلي الغائب مع الجثث بطرقاته الهادئة على باب غرفة التشريح ثم يفتح الباب بملامحه الجامدة وتجاويف الزمن المحفورة على وجهه وعيناه الجاحظتان بفعل ألاعيب الغدة الدرقية أعتقد أم تُرَاهُ مما رآه في هذا المكان.. الأرواح ليست مرعبة بل عينان هذا الرجل التي تكاد تخرج من وجهه هي الأكثر رعبًا، يباغتني دومًا بأسئلته الروتينية وأحيانًا كثيرة الغير منطقية.

- دكتور حازم هل ستترك الجثة هكذا بدون غطاء؟

أجيبه والبلادة تكاد تقطر من كلماتي

- دومًا ما تسألني هذا السؤال.. ودومًا ما أجيبك نحن في مشرحة ولسنا في غرفة تدليك في نادي رياضي.

ترتسم ابتسامة غريبة على وجهه تكشف عن أسنان مصبوغة بفعل نيكوتين سجائر محلية الصنع ثم يهمس من جديد.

- يا دكتور، أخبرتك من قبل الجثث لها حُرمَة.

- أنا أكثر من يراعي حرمات الجثث ولكن على طريقتي الخاصة، ثم أخبرني وكيف سأعمل بها إن فعلت ما تقول بالله عليك.

يحك رأسه الفارغ من الشعر بسذاجة مفتعلة ثم يؤكد على كلامي.

- عندك حق يا دكتور، حسنا انتهي منها سريعًا.

- تُصِرّ دومًا يا عم أحمد أن تشغل بالك بما ليس لك، لا تهتم كثيرًا.. فإن لي عودة لها بعدما أحلل تلك الأنسجة.. أخبرني هل تريد شيئًا؟

- لا, لا أريد شيئًا أتيت لأؤنسك قليلًا.

أدهشني رده الحقيقة وسألت نفسي سؤالًا "وهل إذا أردت أنيسًا ستكون أنت وهل عندي من الوقت لسماع ترهاتك" ولكني آثرت الصمت والرد بلباقة كاظمًا غيظي.

- بك الخير يا عم أحمد ولكنني معتاد على الوحدة أنت تعلم ذلك وأفضل أن أعمل في صمت.. لا أحتاج تشتيتًا.

كل ما كان يجول برأسي الآن كيف أصرفه عني فجاءني ذاك الهاتف البعيد الذي وضع الكلمات على لساني.

- ولكن لا مانع من فنجان من القهوة تعده لي بيديك هل من الممكن؟

وهكذا انصرف على أن يعود مرة أخرى ليتركني قليلًا مع جثتي لم أهنأ كثيرًا بهذه البرهة فإذا بالهاتف يتصاعد رنينه. إنه المقدم عماد المختص بتلك القضية لا أعتبره كذلك بل أعتبره صديقًا بإمكانك أن تقول أننا نلتقي كثيرًا بفعل العمل ولإيمانه بي كطبيب شرعي وبرغم ملف القضية أمامي إلا أنني لم أفتحه لأسمع من عماد التفاصيل الأكثر إثارة.. يهتم كثيرًا بالتفاصيل التفاصيل في عملنا هي الأساس، وكيف لا تكون التفاصيل مهمة فلا يمكن أخذ القضايا بالرؤية الكلية اطلاقًا.. فالمتعة تكمن في التفاصيل ومع عماد دومًا هناك تفاصيل مثيرة يبدأ عماد دومًا حديثه بـ "هل إنتهيت من التقرير" حتى لو كان مدة عملي عليها لا تتعدى تحضيرها للتشريح لاعتقاده أنني (سوبر مان) التشريح في الطب الشرعي ودومًا أخبره أنني إنسان عادي ولست خارقًا وينتهي حديثنا على هذا النحو.

كان يصفني دومًا بالضلال والجنون ولكنه بالنهاية كان يؤمن بي وبموهبتي التي أعمل بها وليس بعلمي فقط.. عماد يكبرني قليلًا بعامين تقريبًا ولكنني أعتبره صديقًا مخلصًا نلتقي أحيانًا خارج حجرات التشريح والأقسام ولكن دومًا ما نجتمع في تلك الأجواء التي نعشقها – أجواء عملنا – الذي لا يخلو من الإثارة وكتم الأنفاس وحل القضايا المبهمة.. أنهي حديثي مع عماد على عجالة وأعود مرة أخرى.

دعني أحدثك عن جثتي.. لا تفهمها بشكل خاطئ فلا أقصد بها جسدي ولكني أعني بها حبيبتي فتاة عشرينية بجسدها سحجات واضحة وعلامات زرقاء في أماكن متعددة من جسدها عنقها عليه علامات حبل قاس كان على أثره انكسار في العنق كان رأسها يميل قليلًا ولكنني كنت أراها تمثل ضعفًا لا رعبًا رغم وجهها الملائكي المحتقن.. مبدأيًا سبب الوفاة اسفكسيا الخنق.

يميل عماد للترجيح القائل أنها جريمة شرف ولكن الجثة التي أمامي لها ترجيح آخر، كانت تشير لي أن أعمل بجهازها التناسلي فأجدني أهم بذلك ولكن، كيف تكون جريمة شرف وهذا جسد تملؤه البراءة والفطرة فليس هذا جسد من تمتهن العهر برغم أنها ليست بكرًا!!

"لِمَ ترسلين لي تلك الإشارات الغير مجدية.. سأنتظر المزيد من إشاراتك فلست بمتعجل" أجد تحت أظافرها جلد بشري داكن وبعض شعيرات قصيرة، هل هي مشادة انتهت بموتٍ محقق؟!.

أمعن النظر في أقدامها فأجد عليهما آثار ضربٍ قاسٍ كما على ذراعيها وفخذيها.. أمسك بهاتفي لأهاتف عماد مرة أخرى وبعد التحيات حدثته قائلًا:

- عماد أريد عينة من جلد المتهم هناك نسيج جلد بشري تحت أظفار نيرة أرغب بمقارنته بأنسجة المتهم.

- حسنًا، سوف أتحرى عن ذلك.. لعلك تحل لنا لغز تلك القضية.

ضحك حازم وأجابه قائلًا

- وهل خذلتك يومًا ما.

بادله عماد الضحكات بأن لا ولا يستطيع أن ينكر.

ثم عاد من جديد لجثته الكائنة على منضدة المشرحة محدثًا إياها

ماهي قصتك يا جميلتي؟؟ هل لكِ أن تحلي هذا اللغز المتمثل في جسدك المسجى أمامي أرجوكِ.. لا أرى فيكِ ملامح عاهرة ولا أصدق أن تكوني من هؤلاء فجسدك بكر حتى وإن دنسه رجلٌ ما، وذاك الأخ هل حقًا ارتكب تلك الجريمة، أشعر أن هناك

شيئًا ما مخبأ في تلك القضية.. سنراه فيما بعد بالتأكيد حتمًا سأحل ذاك اللغز ولكن علي أن أستجيب الآن لنداء عم أحمد الذي فهم أنني أريد أن أصرفه بعض الوقت ولكنه اهتم بفنجان القهوة خاصتي التي تصبح علقمًا من تحت يديه ولكن.. "مجبرٌ أخاك لا بطل".

أعلم أني أخبرتك من قبل عن قصة جثة قلبت موازيني وجعلتني لا أثق بكل الجثث، مهلًا ليست هذه الجثة التي أقصدها ولكنها آتية لا محالة، أما (نيرة) فقصتها مأساة متكررة تحدث في مجتماعتنا العربية فلا تتعجل الأمر، فمازال في جعبتها الكثيروالكثير، لن أتوانى حتى أخبرك بكل التفاصيل المثيرة في كلتا الجثتين، ولكن الآن دعني أخبرك بما علمته فيما بعد عن (نيرة).

نيرة فتاة من منطقة شعبية للغاية.. كان كل حلمها أن تكون مثلما يقول أهل منطقتها (داكتورة) ولكن انتهى بها الحال أن يطلق عليها (ممرضة) بعدما التحقت بمعهد التمريض.. برغم بساطة أسرتها إلا أنهم كانو عاكفين على تعليمها، ليس إيمانًا منهم بأحلام نيرة التي كانت ترجوها ولكن لإيمانهم أن التعليم ضرورة وهو الذي سينجيها مما هم فيه.. فلتخرج خارج ذلك النسق البغيض وربما تتزوج طبيبًا فينتقل بها إلى مكانٍ آخر، كلها أحلام ولكنهم كانو مؤمنين بها.

والدها كان متوفى فقد نشأت واليتم كاسرًا لعينيها البنيتان، عندما مات أبيها كل المسؤولية وقعت على صلاح أخيها وهوفي الرابعة عشرتحمل أن يكون رب الأسرة وأن يحقق حلمه في أخته بعدما حرم من العلم الذي كان يوفره له أبيه برغم ضيق ذات اليد، وبرغم فقره أورث صلاح معاني الرجولة غرس بداخله كيف يحب أخته ويخاف عليها ويحميها.. كما كانت نيرة النسخة المصغرة من صفية أمها كانت تصغر صلاح بسبع سنوات.. عندما مات أبيها على إثر الفشل الكلوي الذي أرداه صريعًا مع أول محاولة لغسل كليته بعد صراعٍ طويلٍ مع المرض عانت فيها الأسرة كلها ويلات الفقروالجوع.. كان صلاح قد أمسك بدفة العمل ولكن ليس على عربة الفول البسيطة فقد كان صغيرًا على أن يفعل ما كان أبيه يفعله، تبناه ميكانيكي في الحارة

التي يقطنون بها ليعلمه صنعة على حد قوله تكفيه شر الزمن، لم تجد صفية بدًا من أن يخرج صلاح من المدرسة ولم تجد عنده سوى الشهامة التي زرعها أبيه فيه.. ولكنها لا تزال بضع قروش يأخذها من رب عمله لا تكاد تكفي شيئًا.. مما جعلها أيضًا تعمل بائعة للخضروات أمام باب بيتها.. عانت نيرة مع كل هذا ولكن روح الطفولة جعلتها تلهو قليلًا حتى مات أبيها وكانت تلك صدمتها مات أمام عينيها الصغيرتان وهي بالكاد تحاول أن تبصر بهما الحياة فلم تبصر سوى عويل أمها ولم تسمع سوى اللعنات التي تتدفق على الفقر الذي لا يرحم، فقدت النطق فترة من الوقت لا يعلمون هل بإرادتها أم رُغمًا عنها ولكنها بعد فترة أصبحت تهته، ومع محاولات صلاح ليكون لها أبًا وأخًا كانت تستجيب لمحاولات أحاديثه معها رغم إنهاكه من العمل ولكنه شعر أن هذا واجبًا عليه أن لا يتركها في تلك الحالة ولكن أيضًا مع كثرة الأعباء وتحقيق حد الكفاف لم يعد هناك وقتًا لأي شيء سوى العمل والعمل فقط.

كبر الجميع ومعهم صفية أمهما التي رسم الزمن على ملامحها البؤس والفقر والحاجة خطوطًا لا يمكن أن تتجاهلها، بعدما كانت كل يوم لضيق الحال لا تعتقد أن ابنتها ستتزوج ولم تكتفي بذلك فقد كانت تعطيها تلك الإشارات بأن جمالها محدود فمن ذا الذي سوف يعيرها اهتمامًا أو كما كانت دومًا تقول لها (لا مال ولا جمال ولا حسب ولا نسب) مع التنبيه عليها دومًا أن الرجال ماهم إلا ذئاب بشرية لن يريدوا منها سوى شيء واحد عليها الحفاظ عليه وأن الجميع يتربص بذلك الشيء،

ودخلت (نيرة) معهد التمريض وهي على يقين من كلمات أمها التي كسرت بروحها أي ثقة في ذاتها المدهوسة تحت عجلات الفقر ولكن روحها كانت تحاول أن تحيا ولا تنشد شيئًا سوى الحياة.. ولكنها ماتت ولا أحد يعلم من الذي قتلها.

***

(5)

تتوق الأنفس للحظات الحنان والحب وتنصهر الأرواح في سبيل أن تحظى ولو بالقليل من ذاك الحلم الوردي لأي فتاة تريد أن تنثر أحلامها الرقيقة بين يدي رجل يشعرها بالأمان، إنه حلم الحب ذاك الأمل في لقاء مختلس ولحظات جنون ملتهبة وسكون روح أرَّهقها اللهاث خلف ذاك السراب المزعوم.

لم تكن حصون فريدة قوية بالشكل الكافي لمجابهة أسهم مراد الذي بدأ يحيطها بها من كل جانب، كانت قلاعها شبه مهدمة عندما تراها من بعيد تظن أنها قلعة كاملة البنيان ولكن حينما تقترب منها تجدها كالثوب المهترئ.

ثقوب متمثلة في قسوة أب واستسلام واتهامات غير معلنة من الأم، وحياة في ظاهرها مكتمل ولكنها تحوي بداخلها الكثير من الفئران التي تنخر جميع الأساسات تصنع أنفاقًا في النفس بقدر سنوات الاشتياق إلى الاحتواء، تعبت روحها من كثرة ما كانت تلاحقهم لتسد ثغورهم واستسلمت لتلك الشقوق التي ألَمَّت بروحها، لم تقاوم كثيرًا أو لم تكن تمتلك القدرة على المقاومة أكثر من ذلك فهو ذاك الرجل المكتمل الرجولة في سن النضوج لم يكن ليحتاج الكثير ليشن هجمات متتالية تنهار معها كل حصون براعم أنثى في سن التورد، وجدت روحها تتعلق به رويدًا رويدًا تركتها تنسل من فقاعتها ولم يكن يعنيها أي شيء سوى أن تكون مع منقذها من براثن الألم، سمحت له أنه يرى ضعف روحها وشغفها لأن تكون مع رجل مختلف.

ترى هل هناك ما يسمى برجل مختلف!! أم نحن من نريد أن نراه مختلفًا، هل الاحتياج يجعلك تلقي بذاتك بين براثن المجهول، ترى هل تراه ذئبًا أم هي الخديعة

التي يمتهنها ببراعة, تُرى هل كل الضحايا خدعتهم الوداعة المرسومة في عيون الذئاب، أم أنها البراعة المتأصلة فيهم هي التي جعلتهم لا يرون سوى الثقوب التي تسمح لهم بالمرور بدون عناء!!.

فتحت فريدة حصونها الغير محصنة لمراد بمنتهى السذاجة كطفل يتوق لضمة أبيه الغائب، تركته يقترب منها ويبعث لها في مكتبه بحجة أي شيء وتبادل معها الحديث، كانت تريده أن يقترب وكان يريد أن يقهرها أو ربما كان كل هذا هراء!!، إلى أن فاجأها بسؤاله.

- هل بإمكانك أخذ موعد لي من عائلتك؟

نظرت له والدهشة تملأ عينيها فاغرة فاها لا تدري بماذا ترد عليه، أيقظها من غفوتها بنداءه عليها.

- فريدة، هل تسمعينني؟.

أجابته بعد أن استفاقت من دهشتها وطلبه المفاجئ، ومن أسئلتها التي تقافزت في رأسها كظباء برية تحاول الجري في مكانٍ محدود.

- نعم سمعتك ولكن..

أجابها بحزم.. وعيناه تحاول أن تتوسل.

- ليس هناك لكن.. سأنتظرك غدًا تبلغيني بموعد، فاليوم آخر يوم للاختبارات ولا أعلم كيف سأراكِ مرة أخرى.

ثم سحب ورقة وَدَوَّنَ عليها بضع أرقام وأعطاها رقم هاتفه وأبلغها أنه ينتظر اتصالها ليسمع أنهم ينتظرونه في موعدٍ ما سوف يحددونه.

كانت تريد أن تخبره عن ظروفها وحالتهم المادية المتعثرة.. ولا تعلم إن كان أبيها سيوافق على أن يزوجها وهم لا يملكون ثمن نقطة واحدة من بحر جهازها التي لا تعلم عنه شيئًا ولكنه لم يمهلها وكأنه يعلم كل شيء أو موقن من الموافقة وهو الرجل الذي لا يمكن أن يتم رفضه لمكانته.

هكذا إذًا تجري الأمور، فغر المجهول فاهه وقرر أن يبتلعها، فجأة تجد شخصًا

ما يقتحمك بقوة ولا يجعل لك مجالًا للتفكير أو التساؤل "كيف حدث هذا!!؟ "، وبرغم المفاجأة التي وضعت فيها فريدة لكنها جعلت قلبها ينتفض كعصفور ابتلت أجنحته الرقيقه بزخات مطر هشة، إن أول مرة في كل شيء مثيرة ورائعة أول رجل يلتفت إلى أنوثتها التي تحاول أن تخفيها برداء الطفلة الذي لم ترتديه يومًا سوى بداخلها ولكن تلك الطفلة مازالت كائنة في روحها تلهو وتعبث وتبكي وتبكي حتى ينهكها البكاء فتنام والدمع يرسم خطوطه المالحة على وجنتيها الصغيرتين.

وتظل الضحكة حلمًا بعيد المنال على تلك الطفلة التي سئمت اللون الأسود الذي تعزف عليه داخل أروقة روحها المتعبة، اشتاقت لأصابع البيانو البيضاء لتعزف عليها لحنًا مختلفًا يضيف لحياتها رونقًا آخر تهوى البيانو ولم تكن تعلم كيف يتم العزف عليه ولكن في أحلامها لطالما عزفت حتى آلمتها أصابعها وأنهكها العزف وتنام على مقطوعتها السحرية التي ابتدعتها من وحي أحزانها تنام وتصحو عليها.. ولكن الآن لم تكن تلك المقطوعة هي التي عزفها قلبها بل كانت مقطوعة أخرى تشع بالحياة والبهجة وتفتح الأبواب البعيدة التي لطالما حلمت بأن تفتح لها على مصراعيها وهي تمتطي مع فارسها حصانًا أشهبًا تكون هي عروسه التي تضيء له ظلمته وتطير كنجمة في السماء.

عادت إلى منزلها كفراشة هجرت شرنقتها، تعلم أن الفراشة عمرها قصير ولكنها لم تبالي فلم يكن في مخططها يومًا أن تظل داخل تلك الشرنقة تغزل خيوطًا من الحرير ضعيفة من السهل تقطيعها، لم تكن تعلم أن في كلتا الحالتين لن تستمر حياتها طويلًا سواء كانت داخل شرنقتها أو تحررت منها لتصبح تلك الفراشة الزاهية الألوان تلهو بين الزهور بضع سويعات ثم تنهار أجنحتها وينهكها الطيران فتصرع ولا يأبه لها أحد. عادت وروح الطفلة التي بداخلها تنبؤها بأن هناك ضوءٌ في الأفق يلوح لها.. تراه نورًا أم نارًا.. ليتنا نعلم ولكنها هكذا تسير الحياة تجذبك وبالنهاية لن يحدث سوى ما هو مقدرٌ لك.

لاحظت الأم ما هي عليه.. تعجبت قليلًا ولكنها لم تبادر لتسألها يومًا ما بكِ؟ تجاهلت وانشغلت وتركتها مسحورة بذاك النور البعيد وذاك البيت وتلك الحياة

ورفيف ثوب العرس الأبيض ولحظات حب تجمع بين اثنين، أمسكت بالورقة المخطوطة بقلمه الأزرق.. ظلت تنظر لها قليلًا وتردد الأرقام المرسومة بثقة عليها تمسكها بأطراف أصابعها ووضعت سماعات هاتفها وجعلت موسيقاها الناعمة تتسلل إلى قلبها الراقص وتركت لقدميها وجسدها وخصلات شعرها العنان للتمايل معها وكأنها تراقص تلك الورقة التي كانت إذنًا لروحها بالفكاك مما هي فيه حتى أن فرحتها غلبتها وعندما خرجت من مكتب مراد وجدت علياء في انتظارها وهي تحترق من فرط الفضول الذي كاد أن يأكلها وعندما خرجت ولمست ذاك البريق الذي أضفى على فريدة جمالًا خاصًا لا يعلمه سوى المحبون لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة سوى أنها أرتها الرقم المكتوب على الورقة التي لا تفارق يدها إلى أن عادت إلى المنزل وهاهي تراقصها الآن وعيناها متعلقتان بتلك الأرقام وكأن الورقة سمائها وما خُطَّ عليها نجومًا ستهتدي بها في صحراءها القاحلة. ظلت تتمايل على أنغام الكمانجة التي تصدح في بوابة قلبها حتى أنهكها الرقص فارتمت بكامل جسدها على فراشها وهي لا تزال ترفع يديها وممسكة بالورقة بإصبعيها في مرمى بصرها ثم ضمتها إلى قلبها وأغمضت عينيها وشفتيها تنفرجان عن ابتسامة يكاد قلبها يخرج من مكانه من فرط السعادة التي جعلت منها أنثى في عيون رجلها التي تحتاجه.

لم تتركها علياء لتستمع بما هي فيه ظلت تهاتفها وهي تحترق لتعلم كل التفاصيل التي تهواها الفتيات – فتاة بغير تفاصيل تصبح آلة – ولكن لم تتركها فريدة لتنال ما تريد فكانت بملكوت خاص بها تريد أن تسبح فيه بكامل جسدها لا يفصلها عنه شيء حتى وإن كانت توأمتها التي لا تفارقها قطّ.. حدثت نفسها أن كل شيء ستعلمه ريثما تنتهي من جولتها في بئر السعادة المنغمسة فيه حد الغرق.

وما أن حفظت الأرقام حتى هرعت إلى والدتها لتجلس بجانبها وتكاد عينيها تسقطان موضع قدميها وقلبها يكاد يخرج من مكانه من فرط الانفعال

لم تبالي الأم بجلسة ابنتها ولا بلمعان عينيها فقط ازداد انشغالها بتطبيق الملابس المتكومة أمامها – ورغم اعتياد فريدة على ذلك إلا أنه آلمها – ولكنها تجاهلت كل ذلك وتنفست بعمق قبل أن تنفرج شفتيها بما ستقول.

- أمي.. لقد طلب أحدهم يدي للزواج.

التفتت لها أمها غير مصدقة كأنها لأول مرة ترى ابنتها عروسًا يأتيها الخطاب فاجأها اشتداد عودها وتورد وجنتيها ثم راودتها مخاوفها وبدأت تفضي بها بمنتهى التخوف والذبذبة والهجوم في آنٍ واحد بعدما أشاحت بوجهها عنها منشغلة بما تفعل قائلة

- تراه زميلٌ لكِ في الجامعة، ثم أعقبت وهي تنحي وجهها جانبًا عنها حتى لا تؤكد عليها تساؤلها، والدك لن يوافق على ذلك بتاتًا، فمن الأفضل أن تغلقي الموضوع.

اقتضبت فريدة قبل أن تجيب على أسئلة أمها فليس هذا هورد الفعل الطبيعي بين الأم والإبنة فأردفت قائلة:

- أمي.. ليس بزميل لي ولكنه..

- ولكنه ماذا تراكِ عرفتيه من خارج الجامعة، أهو أخ لصديقة لكِ.. من يكون؟؟

فأجابتها والغضب يملؤها.

- لماذا تصرين على إفساد كل شيء بتلك الطريقة المزعجة؟؟ متى ستتوقفين عن إيلامي وتعتبرينني ابنتك مثل غادة أليس لي حق في أمومتك التي انقطعت عني منذ ذاك الحادث المشؤوم الذي لا ذنب لي فيه فقد كانت إرادة الله ولم أكن سوى طفلة

هال الأم ما وجدته من فريدة فجأة وكأنها ظهر لها لسانًا جديدًا.. فكانت لأول مرة تواجها بتلك الحقيقة التي تتجاهلها لمجرد أن هناك (شماعة) تعلق عليها تصاريف القدر، تجاهلت ما قالته فريدة عن عمد ليس لشيء فمناقشتها فيما مضى كان سيدخلها فيما تكره استفاقت من صدمتها ونظرت بعيدًا قليلًا ثم أعادت ناظريها إلى ما تفعل من جديد بعد أن رمتها مرة أخرى بنظرة ثاقبة قائلة

- أنا مزعجة؟؟ لقد أسأت تربيتك حقًا.. فلتجيبي إذن.. إني منصتة.

أخذت نفسًا عميقًا لتبتلع تلك الفظاظة في الحديث وتجاهلها لكل ما قالت ولكن لم يكن أمامها أي سبيل آخر سوى الإفصاح فالمهلة ستنتهي غدًا ويجب أن تجيبه.

- أمي.. إنه دكتور في جامعتي كان يدرس لي.

- حقًا؟!!

التفتت إليها مندهشة ولكن فريدة لم تترك لها مجالًا لتكمل دهشتها فلحقتها بباقي الإجابات على الأسئلة التي لا تزال حبيسة رأسها لتوفر على نفسها الوقت.

- ليس عندي تفاصيل أكثر من ذلك، طلب موعدًا وأراد مني الرد غدًا وهذا رقم هاتفه.

- هكذا إذن.. سأخبر والدك بالأمر.

ذهبت فريدة من أمامها وراسها يغلي من هذا الاستجواب العنيف، بعدما دست الورقة أمام أمها بعصبية وتركتها بدون أن تلتفت لها، كانت لاتزال مشدوهة بذاك العصفور الرقراق الذي يرفرف بداخل هوة النور التي تلوح لها من بعيد.. تراه نورًا أم سراب!! لا أعلم ولكن ليس كل جذاب مميز هكذا تخبرنا الحياة بمنتهى القسوة، أن تشاهد اللوحة الجميلة من بعيد لتظل أجمل أما لو اقتربت ستندهش من كم الخطوط الغير منتظمة وتصدمك ألوانها فقد تصبح باهتة على غير ما كنت تراه من بعيد.

عادت إلى غرفتها ووقفت أمام مرآتها تتفحص ملامحها التي باتت لا تعرفها.. جعلت أصابعها تتخلل خصلات شعرها المتهادية في انسياب على كتفيها ثم مررت كلتا يديها على جسدها ونحتاته ثم دارت فاردة ذراعيها حتى سقطت على كرسيها لتمسك الهاتف وتهاتف صديقتها.. فكان هذا هو موعد البوح فلم تكن لتختمل كل تلك السعادة وحدها كان يجب أن تشارك أحدًا بها ولم تجد أحدًا سوى عليا مثلما كانت تناديها وأخذتا تتحدثان في باقي التفاصيل التي لا تهم أحدًا سواهما. ويتوقعان رد الفعل من والديّ فريدة والتضرع إلى الله حتى يتم (المراد).

***

(6)

يمر اليومان وفريدة تجلس على أعصابها كقشة يحرقها شرر من النيران، بعدما حاولت علياء أن تطمئنها وتحكي لها أيضًا عن قصة حبها مع خطيبها التي تعيش معه أجمل قصص الحب أو كما تطلق عليه نصفها الآخر.

علياء سبقت فريدة في الخطبة بأشهر قليلة وستسبقها أيضًا في الزواج، مما أحزن فريدة ليس لشيء سوى أنها ستفتقد صديقتها وأسرتها المكتملة ولكن كان عزائها أنهما سيبقيان سويًا، كما فرحت لأن هناك من سيخبرها عن أسرار الزواج بكامل تفاصيله بلا خجل التي لطالما تحدثتا فيها ترى كيف يكون، لم تكن تأمل أن تحدثها أمها في ذلك الشيء.. فلم تكن لتتمنى أن تعطيها أمها كامل خبرتها في حياتها التي لا تعتبرها حياة من الأساس.. ولكنها كانت تأمل أن تجري الأمور على ما يرام بين أمها وأبيها وهما يتناقشان أو عندما تخبره بأمر مراد ولم تخب توقعاتها فكان الأمر في الغرفة المغلقة كما في خارجها ينبئ بما توقعته فريدة.

تجلس الأم مقابلة للفراش الذي يتمدد عليه قاسم بعد يوم طويل من العمل تتردد في أن تفاتحه في الأمر ولكنه رأى علامات التردد على وجهها وورقة تظهر من بين أصابعها تعتصرها حينًا وتتركها في راحتها حينًا آخر فاستند على فراشه قائلًا لها والحيرة تملؤه.

- ماذا بكِ يا راجية؟

تتنهد ثم تخرج الكلمات متقطعة منها

- فريدة.

ينتفض من على فراشه منزلًا قدميه على الأرض قائلًا

- ما بها؟!!!

أجابته وقسمات وجهها تسترخي قليلًا

- لا تقلق.. لقد أتاها أحدهم ليطلب يدها

برقت عيناه قليلًا ثم أردف

- حقًا.. من هو وهل أعرفه؟

قصت راجية عليه كامل القصة وبالنهاية أعطته الورقة التي كتب فيها الرقم زفر ثم كورها ووضعها جانبًا ثم همس في خفوت

- وماذا سنفعل لم أدخر شيئًا لهذا اليوم وكأنه لن يأتي.

تحدثت راجية معه في هدوء بأن يسمحو له بالمجيء ويخبروه بما في الأمر وإن وافق فلا بأس ثم استطردت إنها فرصة جيدة وجلست تعدد من المميزات التي لا تعلم منها سوى أنه أستاذ في الجامعة، فما كان عليه إلا أن يومئ برأسه مع ملامحه التي كساها الهم أكثر مما هي عليه وكأنه قد ازداد عمره عشرات السنين بدون أن يمر به الزمن.

طرقت الأم بضع طرقات خفيفة على باب فريدة الموصد ولما كانت في عالم آخر مع موسيقاها التي لا تتوقف ففتحت الباب لتتعلق بها فريدة بعدما نزعت سماعتها من أذنيها منتظرة كلمات الأم.. ابتسمت راجية ابتسامة باهتة ثم تبعتها بالموافقة المبدأية التي كانت ترجوها ابنتها وأبلغتها أن تجري اتصالًا للخاطب في أن يأتي في الموعد الذي حدد ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها وهي منكسة الرأس، لم تبالي فريدة بشيء سوى بإخبار علياء بموافقتهم على لقاء مراد لتستشيرها فيما ستفعل.

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر ليلًا عندما اتصلت بها جاءها صوتها ناعسًا ولكن لم تكن نائمة ولكن سارحة في ملكوت أحمد هي الأخرى، فرحت كثيرًا بما أخبرته لها وصرخت والفرح يملأ صوتها قائلة

- ألم أقل لكِ، لن يرفضوا.

تنهدت فريدة بعدما ظهر على نبرات صوتها الإحباط.

- ولكن الساعة الحادية عشر.. كيف سأخبره في مثل هذا الوقت

عنفتها علياء بحجة أن ليس بين المحبين وقتًا أو حدود مشجعة إياها على مسارعة الاتصال به وإخباره على الفور، أغلقت الهاتف معها وبدأت في تكوين رقم مراد الذي حفظته عن ظهر قلب وما إن أتاها رنين الهاتف حتى تسارعت دقات قلبها واندفع الأدرينالين يضرب بكامل قوته في دمائها التي تجمعت في وجهها منتظرة إجابته حتى كادت أن تغلق لكنه فاجأها بصوته الرخيم الهادئ يلقي التحية.. لم تجب تحيته ولكنها أجابته بصوت مرتعش

- أنا فريدة

ابتسم ابتسامة المنتصر بعدما عدل من وضعية نظارته الطبية قائلًا

- تأخرتي كثيرًا

لم تجِبه ولكنها فضلت أن تستمع إلى أنفاسه التي شعرت كأنها لهيب نيران مستعرة رغم هدوئها فأردف قائلًا

- هل الخميس القادم مناسب لآتي لمقابلة والدك؟!

أجابت بنعم حتى وإن لم يكن مناسبًا فلم يسعفها عقلها على التفكير.. مما زاد من ابتسامته فلهفتها كادت تثير مكامنه ولكنه ظل هادئًا ثم استكمل

- حسنًا.. أراكِ الخميس القادم الساعة السابعة

أومأت برأسها كأنها منومة مغناطيسيًا فأيقظها من غفوتها

- فريدة هل مازلتِ على الخط

أجابت وهي تضحك بنعم فباغتها مرة أخرى

- ضحكتك جميلة

وكانت تلك الضربة من سهامة التي لم تخيب موضعها فانكمشت فريدة بمداعبته لها واستسلمت لخجلها الذي ألحَّ عليها في أن تترك ساحة المعركة التي كانت على وشك أن تقام بداخل جسدها فَهَمَّت بتوديعه على عجل وأغلقت الخط في سرعة.

أما مراد فكان كمن انتصر وزفر زفرة ارتياح بعدما استنشق كامل هواء الغرفة في رئتيه وأغلق أنوار غرفته واستسلم لسباتٍ عميق غادر عينا فريدة التي ظلت تحترق في فراشها إلى أن يأتي ذلك اليوم المرتقب.

حانت اللحظة التي تنتظرها فريدة.. موعدٌ فلقاء فورودٌ منثورةٌ تسير عليها مع مراد في خيالها المنهك، كلما اقترب الموعد تجد روحها تتقافز من جسدها ويكاد قلبها المتسارعة دقاته أن يتوقف فتخبره مهلًا.. مازال هناك الكثير لتتوقف من أجله "في كلتا الحالتين سيتوقف فهناك أقدار لا مفر منها"، دقات الساعة تشير إلى السادسة تنظر إليها وتنظر إلى ساعتها الملفوفة على معصمها كأنها تتأكد من أنها صحيحة ومع انتهاء آخر دقة في الساعة كان الباب أيضًا يدق وكأن دقاته لمست صدرها فتسارعت أنفاسها والقلق بدأ يتملكها فهربت متلفحة بتوترها إلى داخل غرفتها تحاول أن تهدئ من روحها ريثما يحين موعد خروجها ممسكة بمشروب وردي اللون يبارك وجود (مراد).

ساورها القلق بشأن شدة والدها وهدوء والدتها، لكنها حاولت أن تنحي القلق بعيدًا في هذا اليوم، كانت توحي لذاتها أنه لا يمكن أن نفسد أجمل لحظاتنا بالقلق الذي لا يفوت أي فرصة ليدق على أبواب عقولنا التائهة.. لا تعلم متى وكيف تملكها هذا المراد، أتراه هذا هو الحب!! أم تراه صاحب السبق في الأشياء الجميلة.. لا تعلم كيف هذا يحدث أو حدث، استفاقت من دائرة الأوهام الدائرة بداخل رأسها على نداء أبيها.. (فريدة)، نداء أفزعها وجعل فرائصها تنتفض والدماء تهرب من وجهها البريء، لبت النداء بأرجل مرتعشة ويدان ترتجف

ولكن ما أن رأت مراد حتى عادت الدماء مرة أخرى تتدفق إلى وجهها من جديد إنه مراد محفز الأدرينالين. لم تكن تعتقد أن ما كانت تراه في الأفلام الكلاسيكية حقيقة.. أم تراه هذا هو المشهد الحقيقي الوحيد من تلك الأفلام سيتضح كل شيء أما الآن فلتستمتع بتلك اللحظة، جلست بعدما أشار لها والدها بالجلوس وحدد لها الكرسي التي تجلس عليه مع نظرات مقتضبة قائلًا لها:

- الدكتور مراد جاء ليطلب يدك اليوم ويتعرف علينا فإن وافقتي سيجيء مع عائلته لنتفق على إجراءات الخطبة.. فما رأيك؟

كادت أن تتخلى عن خجلها لتخبره نعم يا أبي موافقة مع ابتسامة عريضة ولكنها أحجمت عن هذا ورسمت خجلها الذي بدا مبالغًا فيه ثم همستها حياءًا.

- موافقة على ما تراه مناسبًا يا أبي.

قالتها ثم هبت من مكانها واقفة تسوقها قدماها إلى المطبخ وتلحق بها والدتها، وقفت أمام البراد تقذف بكم من المياة الباردة كي تخفف من حرارة جسدها التي ارتفعت بفعل ذاك الهرمون اللعين الذي يتحكم الآن بكل ذرة فيها وما أن انتهت حتى وجدت والدتها تنظر لها نظرة قَلَّما رأتها تنظر لها بها، نظرة تلمع فيها فرحة غير مسبوقة، كانت تنتظر منها أن تجذبها بداخل أحضانها ولكنها لم تفعل فقط ربتت على كتفها وأومأت برأسها علامة الموافقة ونبستها بضعف.

- مبروك يا ابنتي.

تصارعت الأحاسيس بداخل فريدة.. هل أحتضنك يا أمي!! كيف لي أن أعبر عن فرحي لم تشاركيني يومًا أي شيء مفرح لي، تبدلت الذكريات أمام عيني فريدة نجاحها في المرحلة الإعدادية، والثانوية ودخولها الجامعة التي تتمناها وارتسم السؤال الذي وأد فرحتها وهي وليدة "منذ متى يا أمي لم أستكين داخل أحضانك، تراه منذ كنتي تلقمينني صدرك وأنا رضيعة" كل هذا في سرعة مر بداخلها فلم تجد أن عليها شيئًا سوى أن تقول بابتسامة باهتة.

- الله يبارك فيكِ يا أمي.

والتفتت لتحضر المشروب والحلوى ولم تنبس ببنت شفة، ثم أخذتهم للخارج وهي مخفضة رأسها بالكاد ترى موقع أقدامها وما أن قدمت الحلوى حتى انصرفت لغرفتها، وارتمت على فراشها تمد ذراعيها في أول الأمر ثم تكورت كجنين واحتضنت روحها وكأنها كانت تحتاج لتلك الضمة وبدأت تحدث نفسها بلا صوت "آآهٍ يا أمي لكم كنت أحتاج ضمتك تلك بشدة، ليتني رضيعتك التي تلفينها بدثارك كي تحمينني بداخلك بل يا ليتني مازلت جنينك الذي يحويه رحمك، ليتني لم أفقد أمانك يومًا يا أمي لأخرج للحياة فأجدك تبتعدين عني كلما كبرت" لم تستطع أن تقف طويلًا في

وجة ذكرياتها الأليمة التي دومًا تختار الأوقات الخطأ للظهور.. استسلمت لها ببكاء صامت يرهق الروح ويرج الجسد وشهقات مكتومة ووجه مخبأ في وسادة تتمنى لو تنطق لتخبرها "الا تخافي ولا تحزني".

يأتيك الحزن لا تعلم من أين دومًا ما يختبئ بداخل أروقة روحك ولكنه من السهل استدعاؤه وأحيانًا يهاجمك من حيث لا تدري، الحزن ذلك الشيء الذي لا يتوانى في أن يغتصب فرحتك من قلبك ويستبدلها دومًا بمكانته الرفيعة، فللحزن جلال وكرامة لا يقبل أن يكون له شريك بداخل أرواحنا الهشة، ودومًا ما نجتذبه كمغناطيس وكأننا جُبِلنا على الكآبة ولا حق لنا في أن نسعد ولو قليلًا. "الإنسان كائن كئيب، هكذا تقول الأسطورة".

تشعر بربتة خفيفة على جدار قلبها فتنظر لروحها بعين عقلها فتجد عصفورها يحاول أن ينقر أنفها بوداعة فتبتسم لخيالها وتنهض تكفكف دمعها وتعيد إصلاح ما أفسدة البكاء، الدمع الصامت أكثر إيلامًا من الدمع الدي يصاحبه صراخ وكأنه اجتمع فيه كل شيء واختزل كل طرق التعبير فيه فيصبح أكثر ملوحة وحرقة وإلهابًا لثنايا الروح المتعبة، جاهدت كي تخفيها وتعيد من هيئتها كعروس تخطو أولى خطواتها على طريقها الوردي، باغتتها طرقة الباب لتخبرها بأن مراد قد انصرف، ليأتي الجزء الذي لا تفضله من والدها، فتح عليها باب غرفتها بدون أن يطرقه، فالأب دومًا يجد أنه لا مجال للاستئذان على أبناءه فلازال يراهم صغارًا وليس عندهم ما يخبئونه، ظن خاطئ ولكنه دومًا ما يحدث، لملمت نفسها واستجمعت رباطة جأشها ونظرت له نظرة جامدة وانتظرته يتحدث، ولكنه لم يتحدث على الفور ظل ينظر لها نفس النظرة التائهة التي ارتسمت على مُحيَّا والدتها وارتسمت الرسائل الباهتة في رأسها من جديد "ما بكم اليوم نظراتكم غريبة وفي غير موضعها!! " لم تكن لتدرك ما مغزاها ولكنه قاطع رسالتها الصامتة وقال.

- أراكِ تكبرين دون أن نشعر..

حاولت أن تجد كلمات لكي ترد بها ولكنها ظلت على تلك الوضعية الصامتة فأردف قائلًا وكأنه شعر بالحرج من أن تنكشف عاطفته المختبئة خلف قسماته الجامدة.

- لقد حددنا موعدًا الخميس المقبل ليأتي مع عائلته ونحدد موعد الخطبة، مبروك يا ابنتي.

قالها ولم ينتظر منها ردًا ملتفتًا ليغلق الباب خلفه ليتركها تلتقط أنفاسها المحبوسة في حضرته، زفرت زفرة ارتياح وبدأت تدور في غرفتها مادة ذراعيها في رقصة حالمة أيقظت تلك الفراشة من مخبئها لترفرف بأجنحتها ناسية عمرها القصير، فتكمل رقصتها على أنغام هاتفها الذي رسم صورة لخاطبها على هاتفها ضغطت على زر الإجابة غير عابئة بلهاثها ولا تقطع أنفاسها من جراء دوران (الباليرينا) الكائنة بداخلها، لم ينتظر منها تحية وفاجأها مرة أخرى قائلًا

- كنتي جميلة اليوم كأميرة.

ازدادت دقات قلبها أكثر فأكثر ولم تقوى على أن تهمس بكلمة فأكمل غير مبالٍ بصمتها.

- سأنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر لأرى جميلتي تتهادى أمامي مرة أخرى.

همست بها خجلة.

- وأنا أيضًا سأنتظرك.

كادت تغلق الهاتف من فرط خجلها ولكنها آثرت أن تستمع إلى أنفاسه حتى لو كانت منتظمة لا تجاري لهاثها ولا اهتزاز روحها.

- حسنًا.. إلى لقاء

رغم أنه لم ينتظر منها ردًا.. إلى أنه ترك روحها تجوب في سماءه، لم تأبه إن كانت سماء بلا نجوم أو بلا قمر ولكن كان يكفيها الطيران في تلك السماء بلا دليل أو بلا اهتداء، وليتنا نعي أنها مجرد غشاوة حمقاء التي تجعلنا نسير في نفق مظلم يجعلنا نتخبط يمينًا ويسارًا حتى تتكسر ضلوعنا في ذلك الظلام المميت.

***

(7)

أجد متعة في أن أقص عليك ما أمر به من مفاجآت، ليست المتعة فقط هي ما تدفعني لان أدون ما أراة.. حياتي يملؤها الاندهاش والكثير من الإثارة، برغم الصمت المطبق الذي أعيش فيه صمت في غرفة التشريح وصمت داخلي وصمت في منزلي، إنه الصمت الذي يجعلك ترهف السمع لكل ما هو حولك وتحترم كل ما تسمع حتى وإن لم يوافق هواك، حتى الجمادات تتحدث بهمس، أدواتي التي أستخدمها في التشريح تأن ومنضدتي أيضًا، أعاملها برقة وأهتم لمشاعرها الغير واضحة أمسح عنها كل ما يؤذيها وأحيانًا كثيرة أشعر أنها تمتص غضبي في حالات حيرتي الشديدة، أشعر بها يغمرها الدفء عندما تستلقي عليها جثة جديدة.

حنونة منضدة التشريح على جثثها فهي في نظري أكثر حنوًا من فراشٍ وثير تملؤه الوسائد الناعمة، ترى لو وجد هؤلاء راحتهم على أسرتهم كانو جاءوا إلى هنا!! أمور كثيرة محيرة في هذا المكان ولكن يظل السكون هو سيد الموقف فهو ما يجعلني أرى ما لم يمكن أن يُرَى.

أجلس على مكتبي وعيناي معلقتان بجثة (نيرة).. وفي كل مرة أجد ملامح لغزها يتكشف قليلًا ولكنه لم يرفع رايته البيضاء بعد، مازال يشهر مقاومته في أن يفتح جميع أقفاله المسمطة، ترى لمن كانت أنسجة الجلد المتجمعة تحت أظافرك يا نيرة فقد أخبرني عماد إنها ليست لأخيكي، فبعد الكشف عليه لم نجد أي آثار لخربشات على جسده.. إذن لم تكون!!؟ ومن هذا الذي تجرأ لكي يخنقكِ بكل تلك الوحشية،

أستند على مقعدي مهملًا جسدي عليه وموسيقاي تعزف في أجوائي وأنا مغمض عيناي لعلني أجد حلًّا لكل هذا الغموض الذي يغلف جثتكِ، أنتظر منكِ المزيد من الإشارات ولكن لِمَ تُصِرّين على الصمت أنتِ أيضًا، فمنذ أول إشارة لم تهديني إليكِ من جديد وكأنكِ فقدتِ تواصلك معي، أم هناك شيءٌ ما يخيفك!

يذهب في غفوة ويترك روحه تسبح في بُعْدٍ آخر، الكثير من الأرواح هناك، يشعر بجسده يعلو بخفة ويرى العديد من جثثه التي كانت تتواصل معه، بل يرى أيضًا قلوبهم التي أخرجها من مكانها تنبض وهي منفصلة عن أجسادهم وكل جسد يراه يرى هوة قلبه في صدره وكأن نزع قلوبهم جميعًا فاجتمعت في مكانٍ واحد تدق سيمفونية الموت على منضدة واحده أم تراهم تركو قلوبهم عندما تركو الحياة، إلتفت عنهم فوجدها.. إنها هي نيرة.

تقبع في ركن بعيد منزوي تنظر له في ريبه وتخوف، يحاول أن يقترب منها ولكنها تنزوي أكثر.

يلفت نظره مسبحة ضخمة تمسك بها تحاول أن تفك حبلها ولكنها لا تستطيع فتلفها حول عنقها وتحكم ربطها، يمد يده نحوها وكأن يده تستطيل بدون اقتراب ولكن ما أن يقترب منها حتى يجدها قد فارقت الحياة.

ينتفض من غفوته ناظرًا إليها، وصدره يلهج باللهاث الذي ضاق به صدره وقطرات من العرق تغلف جبهته.

ماذا تراكِ تريدين أن تخبريني، أفصحي ولا تخافي.. ماهذه المسبحة الضخمه التي كنتي تمسكين بها، إلى ماذا تشير!!

يفتح الباب ليظهر من خلفه عماد.. يتخطى الجثة المسجاة على منضدة التشريح بحذر كمن يمر على مقبرة ويجلس على الكرسي الكائن أمام المكتب راميًا بكامل جسده عليه حتى صدر عنه صريرًا مزعجًا فزع حازم الذي كان يغسل وجهه ليستفيق وجعله ينهره قائلًا:

- على مهلك.. ماذا هنالك أنت في مشرحة ولست في مقهى.

يزفر عماد زفرة تنم عن الضيق ويظل صامتًا مشيحًا وجهه عن حازم يمعن النظر في جثة نيرة، ينتبه لنظرته حازم فيبادره عماد قائلًا:

- إنها التحريات، فعندما تتحرى عن جريمة في منطقة شعبية تجد الكثير من الخزعبلات تنثر حول الجريمة، لا تعلم مدى صحتها من كم الخداع الكائن بها.

- وعن ماذا اسفرت التحريات؟؟

- بعض الجيران المقربين يقولون أنهم كانو يسمعون صراخًا وشجارًا كل يوم وليلة يخرج من منزل القتيلة.

- وهل كان هذا الصراخ نابعا من نيرة؟

- تقصد القتيلة

- تطلق عليها أنت قتيلة أما أنا..

قاطعه عماد قائلًا:

- أما أنت فيجب أن تطلق عليها الجثة.. تتحدث عنها كأنها حبيبتك

- دعك من هذا أنت تعلم كل شيء.

- أعلم أعلم.. نعم كانت منها ويتداخل معها صوت أجش.

- صوت لرجل.. ربما شجار مع أخيها؟؟!

- لا أعلم وهذا ما يحيرني.. لا أحد من هؤلاء ينبس بشيء، غير أنهم أيضًا أفصحوا عن إشارات غير مفهومة.

- مثل ماذا؟

- يشيرون إلى أنها ربما تكون سيئة السلوك.. لا أعلم أم تراها تكهنات تلك المناطق عند وجود جريمة قتل أول شماعة تعلق عليها الجريمة هي شماعة العهر

- حقًا!! قم معي يا عماد لأريك شيئًا

يقوم عماد مع حازم يقفان على طاولة التشريح بعد أن يرتدي حازم قفازه البلاستيكي ويعطي عماد كمامة وينير الضوء الساطع على الجثة قائلًا له.

- انظر لهذا الجسد

- ماذا بك يا حازم ظننتك ستكشف لي عن حل لتلك القضية

- فقط انظر إليه، هل هذا جسد ينم عن امرأة سيئة السلوك، إنها على فطرتها، هذه ليست أول مرة تتمدد امرأة أمامنا على تلك المنضدة وكثير منهم سيئات السلوك وتستطيع أنت بالعين المجردة أن تستنبط إن كانت تلك لامرأة معتادة العهر أم امرأة لا تمت للعهر بأي صلة.

- ماذا تريد أن تقول؟!

- أريد أن أخبرك أن من تمتهن العهر يا صديقي تجعل من جسدها بضاعة مرغوب بها لأي رجل، ولكن هذه طفلة لا تعلم عن هذا شيئًا فمازال جسدها لم تمسه أيًا من الأدوات النسائية انظر لأجزائها لم يمسها أيًا من تلك الأشياء اللزجة التي تحترف في تنظيف جسد المرأة من شعيراتها، لا تزال بفطرتها التي فطرها الله عليها.

بعدما تمعن عماد في الجثة التي أمامه وهو في كامل استياءه خلع عنه كمامته التي كادت تخنقه وعاد إلى كرسيه قائلًا

- فعلًا، ولكن هذا لا يعد دليلًا.

لا يزال حازم واقفًا أمام المنضدة موليًا له ظهره مستكملًا تحليله

- عندي دليل آخر، برغم أن أجزاءها التناسلية تفصح أنها ليست بكرًا، حين تم الاعتداء عليها كانت ما زالت بكرًا فبقايا غشاء البكارة الممزق مازال بداخلها كما أنه هناك آثار نزيف وتجمعات دموية في الشعيرات الدموية التي كانت تغذيه

- تفسير منطقي، وهل هذا يعني أنه كان اعتداءًا جنسيًا قبل الوفاة مباشرة؟!!

- نعم وكان لمرة واحدة

- أتمنى أن تحل هذا، أريد أن أعلم هل أخوها هو من قتلها جَزَاءَ ذلك أم ماذا؟ وإن كان أخوها فلمن تكون بقايا الأنسجة التي كانت تحت أظافرها، هل تكون لمن اغتصبها؟!!.

- سأحلها حتمًا ولكنها تأبى أن تمنحني المزيد من إشاراتها لا أعلم لماذا؟

- تبًا مازلت على ضلالك القديم!!

- لا تنكر أن ضلالي القديم هذا هو من يحل أغلب قضايانا يا عزيزي.

- حقًا لا أستطيع أن أنكر ذلك، ولكن بماذا أشارت لك؟

- مسبحة..!!

أغلق الحديث حازم بتلك الكلمة بعدما غطى الجثة وخرجا من غرفة المشرحة بعدما أوصى عم أحمد بأن يعيد الجثة إلى الثلاجة من جديد، خرجا وكلاهما يدور فكرة في ما سوف يعمل عليه وافترقا كلًا إلى وجهته على أن يلتقيا من جديد بعدما يصلون للحلقات المفقودة في تلك القضية.

***

obeikandl.com

(8)

لم يكن قد فاتح مراد أبيه بأمر الارتباط بفريدة بعد ولكنه آثر أن يلقيها في وجهه كقنبلة موقوتة وكأنه يبلغه رسالة مفادها أنني أبلغكم فقط ولا حاجة لي بأي من مشاوراتكم مثلما تجاهلتني في كل أمور الحياة، لم يشحذ أنفاسه ولا اهتز له جفن طرق الباب بمنتهى الإريحية وعندما جاءه صوت أبيه الذي كان يجلس على أريكته يطالع جريدة كعادة يومية له وكأنه لا يحفظ ما يكتب فيها كل يوم ولكن أصبحت رائحة الجرائد وحبرها الأسود كتأثير الكافيين في العقل راسخة ومهدئة.. ريثما رآه مراد على تلك الوضعية فأيقن أنه يقاطع جلسة استرخاء.. ولكنه أكمل للنهاية، لم يلتفت له أبيه ظل معلقًا عينيه في جريدته الأثيرة، جلس مراد قبالته وابتسامة مصطنعة على وجهه وابتدر الحديث قائلًا:

- أريد أن أتزوج

طالعة أبيه من خلف نظارة القراءة خاصته ومازال عنقه متدليًا على جريدته قائلًا:

- جيد.. لقد تأخرت في هذه الرغبة

ثم عادت من جديد عيناة تتعلقان بما أمامه لا هي تقرأ ولا هي تهتز فقط جامدة، لم يهتم مراد لهذا التجاهل وأكمل

- جئت لأخبرك أنني على موعد مع أهل العروس الخميس المقبل فأخبر أمي وسارة وباقي أخواتي ليكُنَّ على استعداد.

ألقاها مراد ولم ينتظر ردًا وغادر تاركًا الغرفة في وسط وجوم من أبيه ولكن لم يكن ليستطع أن يفعل شيئًا أمام هذا الشاب الثلاثيني فلم يعد طفلًا وليس هذا هو أوان الصداقة أو بناء الحوار فآثر الصمت وأغلق جريدته بعدما تم إفساد جرعته من الرصاص الذي يعبئ جنباتها وخلع عنه نظارته ثم ألقاها جانبًا بغير اكتراث ثم نادى على زوجته ليخبرها بما قد حدث.

يأتي اليوم المحدد لتلتقي العائلتان ويتم التعارف على النهج المتعارف عليه، بذلت راجية كل ما في وسعها لتهتم بتفاصيل المنزل رغم اعتناءها به وبغادة المنعزلة عنهم إلا في نوبات صرعها القاتلة.. لم تجبر فريدة على أن تفعل شيئًا معها أعطتها مساحتها مع علياء لتتزين وتهتم بتفاصيلها الأنثوية الصغيرة أما هي فقد اهتمت بأن تختارلها زيًا مناسبًا لم يعف عليه الزمن وحضرت كل شيء ببساطة لاستقبال عائلة مراد.. كانت حريصة أن يكون الإنطباع الأول جيد لكي يدوم على الرغم من عدم صحة المقولة ولكنها كما يقولون (الأصول).

استطاعت فريدة أن تسيطر قليلًا على دقات الطبول التي تعتمل في قلبها ورأسها سويًا، فمازال الخوف رفيقها الأول ولربما يكون الخوف رفيقها الأبدي ولكنها تحاول الآن أن تهزمه قليلًا، كان لعلياء دورًا في تخفيف توترها بعض الشيء.

الصديق سند وكَتِف تلقي على كاهله ما يحتويه تجويف صدرك لتشعر بالارتياح لمجرد الإفصاح بمكنوناتك معه.

تجلس فريدة في غرفتها تعتصر يديها حتى كادت تدميهما.. تشعر بجسدها كقطعة ثلج، هل حقًا تستطيع أن تكون زوجة وأمًا أم أمها محقة في كل الاتهامات التي كانت تطلقها من عينها صوبها شعرت بقلبها يعزف نايًا حزينًا لم تستطع أن تقاومه بل استسلمت لدموعه التي كان يقطرها على جنبات قلبها دون هوادة شعرت بذاتها تتهلهل ولم تكن لتعلم.. هل من الممكن أن يكون هذا هو شعور عروس يأتيها خاطبا ليتمم أول خطوة في طريقهما سويًا.

أيقظتها طرقة الباب التي كانت من غادة وعلى وجهها ابتسامة صافية ترتدي ثوب أخضر طويل وترفع شعرها كذيل حصان.. لم تكن فريدة تكره غادة ولكنها كانت تحبها من أعماقها ولكنهما ابتعدتا بعد ذلك الحادث أو حرمت الأم عليها أن تقترب من أختها مرة أخرى وكم آلمها هذا ولكن لم تقاومه لا تعلم من داخلها هل تشعر بالذنب لأنها فقدت أختها معنوياً.. لا ريب من تلك الحقيقة الكائنة أنها فقدتها ولكن الآن عندما رأت وجهها الملائكي يبزغ من فتحة الباب أيقنت أنها ملاكها الحارس، تقدمت غادة منها وجلست بجوارها ثم همست بكلمات طفولية متهتهة لما بها من مرض فأصابها صعوبة في النطق.

- مبروك.. كم أنتِ جميلة اليوم.

التفتت إليها فريدة وتكاد دموعها أن تنذرها بالهطول على طفولتيهما التي ذهبت سُدى واقتربت منها وأخذتها بين ذراعيها وهي تقبلها

- وأنتِ جميلة دومًا

لم تدع راجية الموقف يمر هكذا دخلت عليهما وأصدرت فرمانًا أن الضيوف على وصول فلا يفسدا زينتهما وما أن انتهت من جملتها حتى انتفض الجميع على صوت رنين جرس الباب، استقبل قاسم الضيوف ولحقت بهم راجية وتم اللقاء على أكمل وجه في حضور العائلتين.

أعجبت والدة مراد بفريدة وأجلستها بجانبها كمحاولة بلهاء لكسب الود المزيف ليس أكثر، رغم أن نظرة واحدة منها علمت مستوى العائلة التي جاء ولدها الوحيد ليتزوج منهم.. صالون روميو وجوليت احتفظ بشيئًا من رونقه بعدما غلفته كسوته لسنوات، لوحات لآيات قرآنية يظهر من منظرها أنها لم تتخلى عن مكانها منذ وجد هذا المنزل رغم نظافتها، وفازات الورد البلاستيكية التي يتضح أنها مغسولة بالماء والصابون والسجاد الذي يَئِنّ تحت أرجلهم.. نظرة خاطفة منها جعلت كل شيء واضح لم يأخذ الأمر منها ثوانٍ – ألم أقل لكم من قبل إنها المرأة، لها قدرات خارقة – ولكنها لم تبالي كثيرًا فقد أعجبتها فريدة وشعرت أنها هي التي سوف تسعد ولدها بقوامها الممشوق وجمالها الرائق.

كانت نظرات مراد متنقلة بين سارة وفريدة جعلت الأخيره تغار من نظراته لشقيقته، ويدور في رأسها سؤال " هل اشتقت لشقيقتك أم لي!! وما سر تلك النظرات!! " ولكنها آثرت أن تتجاهلها لكي لا تفسد تلك اللحظات، في حياة أي فتاة لحظات لا تتكرر حتى بتكرار الحدث وإن جاءها مائة خاطب يظل الخاطب الذي له شرف أول دقات على جدار القلب الملتاع تكون الأفضل والأنقى والأجمل، إنهن الفتيات لا يفيد معهم نكران التفاصيل والتواريخ واللحظات المميزه، كائن رقيق أقل شيء يسعده.

استدعت سارة فريدة لتجلس بجوراها تمدح في جمالها الفطري المزين ببضع المساحيق الرقيقة التي لم تغطي ملامحها البريئة سهلت سارة على مراد نظراته المتنقلة بينهما ولكنها زادت من توتره الذي بدا على يديه حتى هربت الدماء منها ولخفوت صوتيهما بدا عليه احتراقه في فرن الفضول الذي لا يهدأ ومئات الأسئلة تدافع في رأسه الضيق وعضات خفيفة على شفتيه وفرك لجبينه ومما زاد من جنونه حينما تعالت ضحكاتهما مع محاولة لكتمانها عندما وضعا إيديهم على شفاههم، ثم زفرزفرة فلتت منه محدثًا نفسه " تبا للنساء ترى عن ماذا يحكيان هل سارة تحكي عني أشياء مضحكة لفريدة!! "، لم تطل حالته هذه كثيرًا حيث باغته أبيه بلهجة صارمة كعادته.

- ألف مبروك يا بني، جميلة عروسك.

- يبارك الله فيك يا أبي.. ناظرًا لفريدة التي ارتسمت على وجنتها زهرتين ورديتين أضافت لجمالها مع انغماس طابع الحسن الذي على ذقنها ليصبح كحبة فاكهه تشتاق للثمها بين شفتيك.

ويعيد الجملة لفريدة أيضًا..

- مبروك يا ابنتي، الله يتمم زواجكما على خير، لقد اتفقت على كل شيء مع الأستاذ قاسم.

نظرله مراد نظرة ثاقبة وَحَدَّث نفسه " أنا من أتيت لأتفق تبًا لعقلي الذي تاه في

حديث أنثوي خافت " ثم استجمع رباطة جأشه من جديد بعدما أومأ برأسه لأبيه قائلًا لقاسم

- حسنًا يا عمي أنا لا أريد شيئًا، فقط أريد فريدة لن أحملكم شيئًا فكل شيء جاهز

خضبت وجنتي فريدة بالدماء وشعرت كأن دقات قلبها يكاد يسمعها الجميع وابتسمت ابتسامة هائمة في عيني مراد التي لم تنظر إليها قطّ ثم استطرد قائلًا بعدما حَوَّل عينيه إلى فريدة وهو يمعن النظر في عينيها

- لا أريد شيء يعطل زواجنا

كادت أن يغشى عليها بعد تلك النظرة القاتلة من عينيه العميقتين المختبئتين خلف إطارهما المعدني ولكنها خسفت بصرها إلى موضع قدميها في خجل زادها إغراءًا وفتنة، أومأ قاسم وسعد بكلمات مراد وصافحه وهَمُّوا جميعًا بقرأة الفاتحة.

يهب أبيه واقفًا بعدما شعر بالقليل من الحرج لما فعله مراد ولكن أيضًا لم يكن في موقف المعترض بل المسير وبالتبعية وقف الجميع استأذنا في الانصراف على ان يتم عقد القران والخطبه سويًا بعد ظهور نتيجة الاختبارات النهائية حتى تكون الفرحة فرحتان.

وما أن نزل مراد من المنزل حتى اختلى بسارة وأخذ يسألها وكأنها يجب أن تعطيه تقريرًا بالأحاديث الدائرة بينها وبين فريدة.

- ها أخبريني ما سبب كل تلك الضحكات التي كانت بينك وبين فريدة؟

- ولم عليَّ أن أخبرك أم تغار عليها مني؟

- أجيبي بدون مناورة أرجوكِ فأعصابي لم تعد تحتمل.

- اهدأ يا مراد لم يكن بيننا شيئًا يستحق أن يحكى كلها أحاديث فتيات ليس أكثر، الفتاة كادت تشعر بالغربة حتى وهي في منزلها كنت أريد أن أجعلها تبدو أجمل في نظرتها وابتسامتها بدلًا من الشحوب الذي هالها عندما رأتنا جميعًا.

- حقًا ألم تحكي لها شيئًا عني؟!

أطلقت سارة ضحكة أعلى من سابقتها في منزل فريدة، ثم قالت له ممازحة

- كم أنت أحمق.

ثم ركبوا السيارة متجهين إلى بيت العائلة ليكملوا الاحتفال برجلهم الأوحد (مراد)

مرت الأيام كمرور السهم في الهواء ومعها انطلقت فراشات فريدة تحلق بين الزهور تحليقاتها البسيطة فأجنحتها ما تزال لم يشتد عودها ولن تشتد يومًا ففي كل يوم مراد كان يكتسب ثقتها ويجعل قلبها يتشبث به كل يوم أكثر من ذي قبل وكأنها تتشبث بحبال وصله في كل ليلة يحدثها ويمطرها بأحاديثه التي لا تنتهي كانت منتشية من كلماته التي لا ينتظر عليها ردًا ومن ثقته الرائعة في حديثه الذي يجذب انتباهها، لم تطلب منه يومًا أن يصمت ليسمعها فهو لها بمثابة الضوء المبهر الذي يجتذبها بغير إرادة منها، عشقت تحليلاته وأوامره ونواهيه واحتواءه لها بمعرفة احتياجاتها بدون أن تعبر عنها، دومًا ما تجده يحاصرها في كل يوم وليلة، مشدوهة هي بمحاصرته لم تكن لتعلم أن الحصار لا يجدي مع الفراشات يقصر من أعمارها ويجعل أجنحتها ترفرف بغير طيران مم ينهكها فتسقط بلا حراك.

وبعد ظهور نتيجة فريدة ونجاحها تم عقد القران.

نتعجل دومًا الخطوات الباقية.. لا ينفعنا التعجل بشيء غير أنه كالسيارة المسرعة لا ترى الذي أمامها وغير عابئة بمن سوف تصطدم ولا إن اصطدمت كيف ستكون حالتنا، ليت حياتنا مثل احتياطات الأمان في السيارات عندما نصطدم يخرج ذاك الكيس الهوائي ليمنعنا من الأذى حتى وإن كان سيتسبب في كسر ضلوعنا عن أن تنتهي حياتنا بموتٍ محقق.

مراد كان متعجلًا دومًا في كل شيء ولكن تعجله ناجم عن تخطيط مسبق، فكان من ضمن الخطة أن يكون متعجلًا في أن تكون فريدة ملك يمينه قبل انتهاء العام فأخذ يعد العدة ويرتب لكل شيء من تجهيز المنزل وتأثيثه.

لم تعبأ فراشتنا بتجاهله لها في كل شيء فإن اختارت يمينا اختار هو يسارًا بحجة

منه أنه يعلم الأفضل والأجمل بل ليس هذا فقط بل إصراره على اصطحاب سارة في كل مرة يختارون فيها شيئًا لمنزلهم وبرغم اعتراض سارة على اختياراته إلا أنه يذعن لاختياراتها هي فقط وليس غيرها حتى في اختيار ما يظهر أنوثتها، كما أسعد ذلك مراد وكان دومًا يخبرها " أن لديها خبرة عنكِ وأنا اثق بذوقها "، لم تعترض أيضًا فريدة بدورها ولكن الغضب يكاد يحرق روحها وكان هذا الهاجس ينير لها ويطفئ.. ترى هل ستأتي سارة للسكن معنا أم هناك حدًّا لكل هذا! أذعنت لجميع رغباته وتركت سارة تبتاع لها ما تريد وفي كل مرة تخبرها " كم سيكون هذا رائعًا عليكي.. مراد سيحب هذا كثيرًا، ستفقديه عقله إن ارتديتي هذا ووضعتي رشات من هذا العطر على جسدك.. كانت تبتسم وآثرت أن تستمع لنصائحها الزوجية على أن تبدي رأيًا واحدًا حتى فيما سوف ترتديه وهي عروس في منزلها المؤثث على ذوق سارة.. سارة فقط. متى سينتهي هذا الجنون أم أنهم سوف يقذفونها في هوة الجنون ويظلان يتضاحكان وهي تهوي في هذا البئر السحيق.

كما أن سارة كانت سعيدة بعودة المياة إلى مجاريها مع أخيها الأصغر وأنها أصبحت بهذا القرب من زوجته المستقبلية وفعلت كل هذا بطيب نفس وحب.. فقد أحبتها بالفعل على الرغم من أنها كانت تراها غريبة الأطوار قليلًا!! ولكن لا باس.

مازالت تساؤلات فريدة تعتمل في رأسها وفي رأسي أنا أيضًا وأعلم أنك ستفقد عقلك أنت أيضًا ولكن مهلًا فمازال هناك المزيد أنا على ثقة من هذا.

***

(9)

مازالت التحريات تجري على قدمٍ وساق في المنطقة الشعبية التي كانت تقطن فيها نيرة، لعلها تقودهم لحل تلك الجريمة التي لا تزال معلقة في دفاتر الشرطة وثلاجة نيرة ماتزال مفتوحة تنم عن جسد مليء بالكدمات الزرقاء ووجة أزرق وعينان شاخصتان ويدان متشنجتان، مازال كل شيء على حاله لم يتغير.

في نفس الوقت يضيق عماد الخناق على شقيقها المأسور بين برائن الشرطة لا يعلم ما هي تهمته سوى أنه متهم بقتل شقيقته، ترى هل بالفعل قتلها؟!، ليته يلفظ باعتراف يفيد ويغني عن كل ما نحن فيه، ربما لم يكن قد قتلها عمدًا ولكنه نال منها ضمنيًا. يستدعيه عماد في مكتبه بعد أن أحرق ما يقارب علبتان من السجائرونصف طن من القهوة التي تعمل بدورها على اشتعال رأسه بقدرما تتركه مستيقظًا، فالاستيقاظ مرهون دومًا بحجم التوتر الذي يخالف الطبيعة، هكذا هي ديناميكية الجسد الضعيف اختلال عدد ساعات نومه تكاد تصيبه بالجنون.

يدخل صلاح المكتب بصحبة العسكري المسؤول عنه قائلًا:

- المتهم يافندم.

يشيرله عماد أن يتركه وينصرف.

- ألن تريحنا يا صلاح وتدلي باعترافك ونغلق هذا الملف الذي طال بين أيدينا.

- لم أقتلها، صدقني.

- إذن من قتلها أخبرني.

ينكس صلاح رأسه في الأرض وتزوغ عيناه يمينًا ويسارًا ثم يستدرك قائلًا:

- لم يقتلها أحد، أخبرتك من قبل لقد دخلنا غرفتها وجدناها مشنوقة.

- حقًا ما تقول؟! وكيف لها أن تنتحر بتلك الطريقة، من أين جاءت بتلك الجرأة والشجاعة والقوة التي تجعها تلف هذا الحبل وتعلقه بهذا الشكل؟

- ومن أين لي أن أعلم.. من أين من أين!!!

ينهض عماد من على كرسيه ويقف بجانب صلاح واضعًا يده على كتفه قائلًا:

- إن أخبرتني بالحقيقة سيكون الحكم مخففًا ثق بي.

- أي حقيقة التي تريدني أن أخبرك بها!!

- أنك قتلت أختك لأنها سيئة السمعة، أليست هذه الحقيقه!!

ينهار صلاح على إثر كلمات محققه مشيحًا بيده في وجهه أن لا. قائلًا:

- لا لا لم يحدث هذا، أختي لم تكن يومًا سيئة السمعة.

- لقد أخبرني الطبيب الشرعي أنها ليست عذراء، فهل قد سبق لها الزواج

يطأطئ رأسه خجلًا وندمًا وحسرة ثم تنهمر من عينيه دمعة أبية يلحظها عماد.

- أخبرني يا صلاح ماذا حدث؟!

- لم يحدث شيء صدقني، انتحرت وماتت لماذا تصر على اتهامي؟؟

يقاطع التحقيق اتصال تليفوني، يرفع عماد سماعة الهاتف فيجد حازم على الطرف الآخر يخبره أنه يريده في أمرٍ هام فيغلق الخط وينظر لصلاح من جديد مخبرًا إياه.

- يبدو أن الطب الشرعي اكتشف شيئًا جديدًا في جثة شقيقتك، فهل تريد أن تخبرني شيئًا قبيل أن أذهب وأكتشفه بنفسي؟! قالها وهو يرفع الهاتف مجيبًا على حازم الذي استدعاه عنده ليتحدث معه بخصوص نيرة.

ينظر صلاح بعيدًا ولا ينبس ببنت شفة رغم أن علامات التوتر كانت بادية على عيناه ويديه وحتى وقفته كانت مهتزة غير ثابتة، استطرد عماد قائلًا:

- حسنًا مثلما تريد.. ثم صرخ عاليًا يا عسكري خذه من أمامي أعِده لحجزه

من جديد لعله يريد وقتًا ومكانًا أهدأ كي يفكر فيما يريد البوح به.

انصرف صلاح ومن وراءه عماد ليلحق بحازم في مصلحة الطب الشرعي، يستقل سيارته عقله تائه في مكانٍ آخر غير الطريق الذي يسلكه ولم يستفق إلا بتلك السيارة التي كسرت عليه الطريق وضيقت عليه المرور فما لبث أن يترك للسانه العنان ليطلق سبات فجة إلا إنه وجد الذي كسر عليه الطريق شخص يعرفه حق المعرفة فرؤيته ألجمته ورسمت على وجهه ابتسامة مضحكة إنه صديقه الدكتور أحمد عبد الرازق ذاك الطبيب النفسي الذي تزوج منذ شهرين ونسى أن له أصدقاء في غمرة حياته الجديدة.

***

في المشرحة

يقف حازم أمام منضدة التشريح يتأمل نيرة ويمسك بيدها لا يفصلهما غير هذا القفاز البلاستيكي، يغمض عيناه مرجعًا رأسه للخلف قليلًا يطلب منها المساعدة ومن السماء أيضًا أن تلهمه شيئًا واحدًا، يتعجب من أن إشاراتها في استكانة جسدها المسجى أمامه وكأنها لا يعنيها أن تفصح، يترك يدها ويطرق على المنضدة بحنق وينظر إلى وجهها محدثًا إياها.

- إذًا لا تريدين أن تتواصلي معي عبر أثيرك، لِمَ بعثتي لي بتلك الرسالة، ماذا تكون المسبحة وما دورها في قصتك وسبب موتك، أخبريني بالله عليكِ لم تزيديني حيرة لِمَ تجعلين روحي تنصهر بقضيتك تلك، لِمَ لِمَ..!!

شعر بها وكأنها تنتفض على منضدة التشريح كأنه أخافها وكانها تشعر!!، نكس رأسه وأسدل الغطاء عليها من جديد وخرج ليتلقط أنفاسه لعل الهواء ينعش رأسه قليلًا وما أن وجد مقعدًا بالخارج حتى هوى عليه غير عابئ بأي شيء مسندًا رأسه على الحائط مهملًا يده بجانبه فوجدها بجانبه إنها هي، تمسك بيده من جديد وتشده للداخل مرة أخرى يترك لها نفسه تجلسه على مكتبه وتهمس له قائلة " المسبحة إنها لدجال " تغيب نظرتها في عينيه، كانت نظرة متوسلة يملؤها الدمع وما إن تبخرت صورتها حتى وجد عماد عم أحمد يوقظه من غفوته..

- ما بك يا دكتور حازم، يبدو عليك الإرهاق.

ينظر له حازم نظرة خاوية من كل التعابير ما عدا تعبير واحد (البحث) ينظر حوله باحثًا عنها ولا يوجد على لسانه إلا شيء واحد.. " أين هي؟! أين هي؟! "

يخبط عم أحمد كفًا بكف قائلًا.. من هي يا دكتور أخبرني. لا يزال حازم تحت تأثيرها ولم يكن يعي ما يقول، عادة عند الاستيقاظ في مرحلة الغفوة يستيقظ الجسد ولكن لا يزال العقل في بُعدٍ آخر، وهذا ما كاد يضيع هيبة الدكتور حازم بتهكمات عم أحمد حينما سأله من هي وهمس باسمها (نيرة). وما إن همس بها حتى ازدادت خبطات عم أحمد على كفيه.

- نيرة مين يا دكتور.. عليه العوض ومنه العوض الدكتور حازم يهلوس.

وما أن نطق بتلك الكلمة وازاد صوت الخبطات على تلك الكفوف الخشنه، وكأنها كانت على وجهه فاستعاد وعيه رويدًا ثم صرخ عاليًا فيه قائلًا:

- عليه العوض في من أيها الرجل الخَرِف.. اتركني ما الذي جاء بك في تلك اللحظة؟

- جاء بي أين يا دكتور هذا ممر ولا أعلم من أين جئت بهذا المقعد؟! ثم استطرد قائلًا: هل مازالت تأتيك الجثث في أحلامك؟! انتبه يا بني فليس ما تقوله الجثث دومًا يكون حقًا!!

قالها بصوت يشبه الفحيح ثم انصرف تاركًا حازم ورأسه يلف ثلاثمائة وستون درجة لإحساسه بحالة الدوار التي تعتريه وما أن تمالك نفسه واستطاع الوقوف حتى اتصل بعماد وأخبره أن يأتيه على الفور.

ترى هل سيفيد حازم عماد بتلك الرسائل المبهمة التي ترسلها نيرة عبر بعدها الآخر هل ستغير مجرى التحقيق وعن ماذا ستكشف.. ليتها تخبرنا وتكف عن هذا، لم يكن يعلم أي شيء سوى أن يهرع إليها من جديد كاشفًا عنها غطاءها ويعود للعمل بها من جديد لعله يكتشف شيئًا لم يكن قد رآه من قبل.

* * *

(10)

لم تكن فريدة أبهى من تلك الليلة تدثرت بزي ملائكي رائق ورغم إخفاءه لمعالم أنوثتها التي تكاد تتكلم.

أكمام من الدانتيل ممتد على صدرها وطرحة من نفس الدانتيل انسدلت على أكتافها التي انحسرت عنها الأكمام بعض الشيء وخصلات من شعرها تتهادى على جبهتها وبعض الورود البيضاء تزين رأسها، كانت مثال حقيقي لملاك يطير من السعادة التي كادت تحمل أقدامها الصغيرتان لتكاد تلامس الأرض في رقة لم تعهدها الأرض منها من قبل فكانت دومًا تزحفان ومثقلتان بأحزان تنخر في عظامها الدقيقة.

أبهرها مراد بحلته الشديدة السواد واستبدل ربطة العنق ب (بيبون) غلف عنقه وكأنه هديتها في ليلة عرس اعتقدت أنها ستكون أسطورية، استقبلها وقد أمسك يدها في رقة مبالغ بها واقترب منها لاثمًا إياها بشفتيه جعلت جسدها يرتجف من قبلته الناعمة.

تبدأ رقصة التانجو على أنغام الكمان يحيط خصرها بيده وتضع كفها الرقيقة على كتفه ويدور بها في حفل زفافهما وتندمج معه وتلف معه في رقصتها الأخيرة.

رقصت كما لم ترقص من قبل، فاجأته حرفيتها في الرقص بهذا الشكل لم يكن يعلم أنها تجيده ولم يكن يعلم أيضًا ما تخفيه كل فتاة عن مكنونها الذي يختفي خلف أبواب الغرف المغلقة، في داخل كل فتاة راقصة أيًا كانت نوع رقصتها المفضلة فكان التانجو رقصتها المفضلة تلك الرقصة التي تشبه رفرفات الفراشة حين تنساب

من بين يديك وتنسحب من بينها وتلف وترفرف وتتطاير ثم توهمك أنك لم تعد محطتها وما أن تنظر إليها إلا وتجدها تنقر على جدران قلبك من جديد أنه التانجو رقصة الفراشات، لم تنتبه لوجود الناس من حولها خطفها بعيدًا بدفء أحضانه الراقصة ويداه التي أحاطت بها وظهرها الذي التصق بصدره وهو يشد على يداها التي تحتضن خصرها، أغمضت عيناها وهي تراه (كآل باتشينو وهو لا يرى يراقص امرأته الفاتنة) ولكم تمنت أن ترافقه في رقصة كتلك، وربما تكون تلك أمنيتها الوحيدة التي تحققت مع مراد، حلمها الذي من أول يوم فاتحها فيه خطبتها وهي ترى نفسها تحلق وتسمع رفيف ثوبها الأبيض وهو يتطاير معها وطرحتها الشفافة وهي تخبئ جزء من وجهها وشعيراتها تتطاير معها فلا تعلم كيف تهذبها ولا هي مهتمة بذلك كل ما تهتم به لفتاته وجذبه لها وإفلاتها من بين يديه والتمايل بين يديه والنظر إلى عينيه كانت تتحدث له أحاديث كثيرة بعينيها ولكنه لم يكن منصتًا سوى لنغمات الكمان الساحرة وجسدها المتمايل بين يديه وما أن انتهيا وسمعا تصفيق المدعوين في الحفل حتى أفلت يدها من يديه وتركها تقف والحمرة تكتسي وجهها ومشيًا سويًا وجلست وهي تنظر له وهو ينظر إلى ضيوف الحفل ويوزع الابتسامات وما أن التقت أعينهما حتى اقترب منها وهمس لها قائلًا:

- كنتي رائعة.. فراشتي البيضاء.

ازداد وهجها واختلط الأبيض بالأحمر الذي كساها وأرخت عيناها في خجل وهمست له قائلة:

- أنت أيضًا تذكرني بنجمي المفضل.

- حقًا!! وهل لكِ نجم مُفَضَّل غيري!!

تبًا لنرجسية الرجل.. لا يرى غيره يدور في فضاء امرأته حتى وإن كان حديث عابر عن شيء ما دومًا ما يقدم نفسه على أي شيء.. جاوبته قائلة:

- نعم كان هناك نجم ما ولكنك الآن أنت نجمي وقمري.

- كنت أعلم هذا.. فلن يحبك أحد مثلما أحببتك.. أحبك.

قالها وتركها تهوي من على قمة جبل اسمه الاشتياق لتلك الكلمة فقد مرت شهورًا ولم ينبسها كان يعبر عنها أحيانًا ويحاصرها بحنانه واهتمامه أكثر من أن يهتم في أن يخبرها بتلك الكلمة الآسرة.. ويالها من كلمة لها سحر لا يوصف تعمل كمخدر قادر على تخدير جسد على منضدة عمليات ليترك جراحه يدب فيه مشرطه الحاد ويعبث به كيفما يشاء بدون اعتراض واحد..

تأتيهم مقاطعة وصلة الغزل والهيام التي فيها العروسين سارة قائلة:

- ماهذا الهيام والحب. لم أكن أظنك هكذا أخي.

نظر لها مع ابتسامته الجامده التي ظل يوزعها طوال الليل على المدعوين ففهمت منها أنها جاءت في غير الموعد ولكنه تحول من تلك البسمة الجامدة إلى بسمة جانبية وملأ صدره بأنفاسه وزفرها في بطء.. شعرت به فريدة وفسرت نظرته لسارة أنها نظرات انتصار وزهو بشيءٍ ما لا تعلمه ولكن الشك كان عالمها الذي لا ينتهي.

ظلت فريدة تلهو في حفل زفافها بين رقصات الصديقات والمرور على المدعوين مع مراد تسلم عليهم ويتعرفو بزوجها وكان من ضمن المدعوين أيضًا كانت علياء التي سبقتها في الدخول إلى عالم الزواج المبهر توقفت عند الطاولة رقم 25 التي كان تجلس عليها علياء وزوجها الدكتور أحمد الذي كان يقف مع صديق له في الحفل فنادت عليه علياء وتم التعارف بينهما وجلسا معهم سويًا على طاولتهم لمكانة علياء عند فريدة انتهت الجلسة على وعد بينهما على تكرار اللقاءات بينهما بشكل أكثر ودًا من ذلك.

انتهى حفل الزفاف بضحكات وابتسامات لا نهاية لها وتخليدًا لذكرى حفل الزفاف بلقطات فوتوغرافية تظل للأبد لتخبرنا كيف كانت أرواحنا في تلك اللحظات وكيف كانت ملامحنا في أكثر أيام الفرح.. لم تكن فقط لحظات الفرح يجب أن تخلد ولكن أيضًا ملامحنا في الحزن.. ليتنا نستطيع أن نفعل ذلك حتى نرى كم تبدلنا وما هو قدر التغير الذي يطرأ على قسماتنا الإنسانية لتغيرها هرمونات الفرح والسعادة فتجعل منا أناسًا مختلفين..

يصعدا سويًا لمنزلهما كانت خطوات مراد هادئة رصينة ولكن فريدة كانت أنفاسها تلهث وتشعر بقلبها يكاد يمزق ثوبها المطرز ويرنو إلى مثواه الأخير، وما أن أغلق الباب حتى تسمرت قدمي فريدة في مكانهما لا تقوى على الحراك مر بجانبها وارتمى على الأريكة التي اختارتها سارة مسندًا رأسه على ظهرها يتأمل اللألئ المتدلية من السقف، تركها هكذا بدون كلمة واحدة نظرت له مليًا والشك يعتمل في رأسها لم يصر على ذاك الهدوء وكأنه يتعمد إغاظتها بشيءٍ ما فقطعت ما يدور بخلدها قائلة:

- سأذهب لأبدل ملابسي.

أجابها بإيماءة غير مكترثة وأكمل طقسه وكأنه يفكر في شيءٍ ما.. ترى ما هو طقسك في ليلة عرسك يا مراد، تركها وآلاف الأسئلة تختلج في رأسها وتزلزل قلبها ولكن أسئلتها لم تدم طويلًا حينما كانت تلهي نفسها بفك طرحتها المتشبثة بشعرها وجدته خلفها ينزعها من رأسها بمنتهى القسوة ويقبلها بوحشية بالغة.

هكذا انتهت ليلة فريدة الحالمة بدمع أغرق وسادتها في صمت.. وهكذا ستنتهي كل ليالها القادمة ولكن ترى، هل ستتوقف وحشيته عند هذا الحد أم سيكون لها جوانب أخرى لا تعلم عنها شيئًا.

لم دومًا تتحطم أحلامنا على صخور الواقع القاسية هل تخذلنا أحلامنا أم تخذلنا توقعاتنا أم سوء تقديرنا لكل شيء.. أم أنه هو الواقع من يرفع لنا كروته الصفراء يريد أن يعلن تنبيهاته في وجوهنا قائلًا " انتبه لا تحلم كثيرًا ولا تتوقع كثيرًا فدومًا ما ستستيقظ من أوهامك على صفعة قاسية ". ليتنا نعلم ما هو الواقع الذي دومًا تتحطم أحلامنا عليه وتتناثر كحبات البلور فتصبح هباءًا منثورًا، وتتبدل معها حياتنا ونتبدل نحن وتصبح ملامحنا غير تلك الملامح الفرحة ولا هي تلك أعيننا التي كانت تنضح بالحياة فتصبح كسيرة عليلة تنم عن ما حدث خلف كواليس قلوبنا المنهكة، ونظل نبحث ونبحث حتى تهترئ أرواحنا وتنهك قوانا عن معنى واحد للسعادة في أروقة الحياة الملتفة.

انتهت ليلتها وأشرقت شمس الحياة، نظرت لها مليًا من خلف ستائر غرفتها وهي تردد (ربما) ونغمات أغنيتها التي تغنيها (دوريس داي) تدور في مخيلتها وتترنم بها بداخلها

Perhaps, perhaps, perhaps

If you can't make your mind up

We'll never get started

And I don't wanna wind up

Being parted, broken- hearted

ظلت تترنم بها بهدووووء قاتل ولم تستطع أن تزيح عينيها من على النافذة وكأنها تنشد أنشودتها الأخيرة لتودع شمسها السابقة وتستقبل شمسًا جديدة ستحاول أن تتعايش معها بكل ما أوتيت من قوة، إن كانت تتحلى بها حقًا، فما زال شبح قلعتها المهدمة يطاردها، وهل هي بالأساس قلعة!! أم مجرد كوخ من القش متهالك البنيان بنفخة واحدة سينهار؟!.

* * *

obeikandl.com

(11)

نعشق الشتاء لأنه يحتوي بداخله دفء ويجلب معه زخات مطر وبخار يتكثف على نوافذنا ليعكس كم هي كانت باردة عند ملامستها لصفحتها الملساء، كم كانت أرواحنا بسيطة ونقية كنقاء تلك الحبات التي تسقط من تجمعات السحب، من منا لم يرسم قلوبًا على نافذته اخترقتها أسهم ويكتب على كل طرف حرف حقيقي أو وهمي أيًا كان، لطالما تساءلت كيف للحب أن يقترن بسهم يخترق القلب ويجعله يقطر دمًا كم كانت قلوبنا بريئة لدرجة أن يصور لنا أن الحب هو قلبان اندمجا يربطهم سهم واحد وقطرات مخلفة وراءها بركة دماء, الحقيقة هي أن قلب واحد فقط هو من يقطر الدماء نتيجة لجبروت قلب آخر يعزف أنشودة الألم على أوتار قلب خدع باسم الحب، هل الحب أبله أم نحن البلهاء حقًا لا أعلم فلم أقع في الحب سوى في حب الجثث الغير مؤذية والتي لا تجعل قلبي يتفطر حزنًا على ذكريات مؤلمة ولعلني كنت أظن هذا.!!

لم تجرؤ فريدة أن تخبر والدتها بكل ما حدث في ليلة العرس ولم تنتبه راجية للضوء الذي غادر عيني فريدة.. كانت تعزيه لرهبة الزواج التي تلم بأي فتاة ولكن لم يكن الخوف هو من يسرق الضياء من عيون الفتيات فبرغم الخوف كانو يشعرون بأن الزواج يضيء أنوار أخرى يعزفها زوج محب على جسد أنثاه.. لم تشعر فريدة بأي عزف فقط شعرت بقرع طبول على رأسها مما أفقدها الأمان التي كانت تنشده.. لم تنبس بحرف إلا لعلياء صارحتها بما تشعر به وبشكوكها تجاه مراد وما يفعله معها

وما تم في ليلة العرس ولكن علياء لم تعر إهتمامًا لشكوك صديقتها لأنها اعتادت منها على ذلك.. تركت لها العنان لتعبر عن كل ما بداخلها ثم قالت لها.

- عادة الرجال هكذا.. لا تعيري هذا الأمر اهتمامًا.

هربت من عينيها وكأنها لا تريد أن تخبرها لم تهملين شكوكي وتظاهرت بانشغالها بإعداد كوب من الشاي قائلة باقتضاب

- هل تعتقدين ذلك!!

اقتربت منها علياء وأدارتها نحوها ونظرت في عينيها

- نعم.. لا تقلقي.. مراد يحبك فلا تعيري شكوكك اهتمامًا استمتعي بحياتك الجديدة اتركي الماضي.

لم تستطع فريدة أن تمنع دموعها الفضية من الهطول من محجريها وارتمت بين ذراعي صديقتها ملقية بكل دموعها على كتفها في نشيج، حاولت أن تهدئها فأخدتها وجلستا سويًا ثم أردفت قائلة:

- صدقيني أن الأمر لن يتعدى عن أنه زيادة شوق لكِ مع الأيام سيكون كل شيء مثلما تريدين

- وماذا عن معاملته القاسية لي

لم تجد علياء ردًا ولا تفسيرًا سوى أن تهدئ من روعها وأنهما لا يزالان في بداية الزواج ولم يعتد كل منهما على الآخر فليس عليها سوى الصبر.

***

تجلس فريدة بجانب نافذتها تتأمل الغيوم التي تملأ السماء ممسكة في يدها كوب من الشاي الذي قد سحبت منه الدفء الذي يشعه من خلاله، وبين الفينة والأخرى كانت ترشف منه رشفات بسيطة وكأنها لم تحضره إلا لتستمد منه الدفء الذي رحل عن عالمها (الدفء!!) ومنذ متى كانت حياتها دافئة!!، يأتي مراد من الخارج بعدما انتهت إجازة العرس التي كانت مدتها أسبوعًا كانت تعدهم فريدة لينتهوا بأسرع وقت ريثما اقترب منها انتفضت فرائصها حتى كاد الكوب أن يسقط من يدها حتى كاد ينسكب على حلته الأنيقة فبادراها معنفًا.

- انتبهي.. كم أنتِ حمقاء.

ثم ابتعد عنها مشيحًا بيده والكلمات تسيل منه بلا توقف بأنها لا تعلم كيف تستقبل زوجها في أول يوم عمل له يغيب عنها استمر هو في هذا السيل إلى أن بدل ملابسه وهي ما تزال جالسة في مكانها تنظر للمتبقي من كوبها لترى صفحة وجهها في كوبها المستكين بين يديها لا تعلم هل يعكس صورتها حقًا أم مسخًا!

لا تعلم ولم تعد من غفلتها إلا على صوته قائلًا لها.

- هل سنأكل أم لم تحضري شيئًا خوفًا من أن يفوت عليكي مشهد من النافذة.

نظرت له نظرة باهتة من عينان منكسرة بدون أن تنبس ببنت شفة ذهبت للمطبخ تحضر له الغداء وهي في زمرة انشغالها سمعته يقول لها.

- سنستقبل اليوم عائلتي ليباركوا لنا في منزلنا، أرجو أن تحسني التصرف ولا تكوني غريبة الأطوار كعادتك.

وضعت الطعام وهي لا تعلم أي إجابة على تساؤل واحد من الألف الذين يتصارعون في عقلها المسكين، لماذا تبدل حالك هكذا؟ لماذا أصبحت لا أعرفك، ترى ماذا فعلت لأستحق تلك المعاملة القاسية منك؟.

تائهة عيناها تحمل بداخلها الكثير من الكلمات ولكن لا عين ترى ولا أذن تسمع ولا قلب يشعر فآثرت الصمت الكلي على أن تهمس بحرف واحد ووضعت عيناها في طبقها تتفحص حجم حبات الأرز وتكاد تكون مقبلة على عدها حتى تنشغل عما يدور في صندوقها الأسود، لم ينتبه لها لأنه لم يكن لينظر إليها كان منشغلًا بالطعام ولم يترك فرصة أن ينتقد الملح زائد كان أو ناقص طبق السلاطة البارد وكأنه كان عليها أن تدفئه، تجاهلت تعليقاته بعد حبات الأرز بعينيها، وما أن انتهى من غسل يديه أخذ ينادي عليها بأعلى صوته كأنها في قارة أخرى، لم تسمعة أو تشاغلت عن نداءه العصبي بفتح صنبور الماء على آخره وأخذت تصفق الأطباق ببعضها البعض حتى تكون حجة مقبولة في أنها لم تسمعه ولكن ليتها لم تفعل، جاءها والغضب يملؤه أمسك بشعرها وجذبها منه لافتًا إياها لتنظر لوجهه قائلًا لها:

- ألا تسمعين؟!!

نظرت إلى عينيه في استجداء قائلة.

- لم أسمع.. اتركني يدك تكاد تمزق شعري.

لم يبالي باستجدائها ولا بتجمع قطرات الدمع على حافة عينيها جذبها من شعرها على غرفة النوم ملقيًا إياها على الفراش قائلًا:

- سأعلمك عندما أنادي عليكِ كيف تسمعينني جيدًا

أغمضت عينها على الدمع المتجمع ليسقط على جانبي وجهها في صمت، فقد سئمت رؤية هذا المشهد المؤلم في كل يوم وليلة طوال الأسبوع الماضي.

حانت لحظة وصول الضيوف إلى منزلهم، أعدت العدة واهتمت بكل التفاصيل المملة التي تأبى روحها أن تفعلها ولكن ليس كل ما تريده أو تكرهه أرواحنا نستجيب له، كانت مجبرة على أن ترسم تلك الابتسامة المصطنعة في وجوههم تلك البسمة التي تخص العروس ولكن من أين لها أن تضفي ذاك النور على وجهها ليظهر السعادة، ذاك النور لا يمكن أن يعكسه شيء سوى أرواحنا فجمال وجوهنا ليس فقط جمال ملامح ولكنه أيضًا جمال روح، حزن الروح ينعكس على الملامح بكل بساطة، ولكن فريدة روحها منهكة منكسرة مما انعكس على لمعان عينها الذي انطفأ بفعل مراد.

كانت زيارة الأهل بمثابة المفاجأة لفريدة لم تكن لتتوقع أشياء كثيرة حدثت، حدسك يحدثك أن المفاجآت من أهل مراد، على الاطلاق بل إن المفاجآت كانت منه هو نفسه، صعقت من رقته أمامهم، فكان يعاملها كأميرة متوجة. يساعدها في كل شيء ويهمس لها بمعسول الكلام في أذنها أمامهم حتى تبتسم من فرط فرحتها بحبيبها العائد في حضرة الضيوف وكانهم جاءوا ومعهم جاء من أحبته، كانت تنظر له نظرة مندهشة حتى أخذ يطعمها في فمها وَيُصِرُّ عليها بدلال أن تأكل من يده حتى ارتسمت السعادة على وجه أبيه وأمه وأخواته وبالأخص سارة التي لاحظت مسحة الحزن التي اكتست وجه فريدة وتلك الابتسامة المصطنعة التي ارتسمت على شفتيها المكدومة

والهالات السوداء التي كست عينيها، مما جعله يزيد في دلالة لفريدة حتى أنه جذبها من يدها وأجلسها على قدمه فقامت خجله والعجب يملؤها من كل تلك الرقة. حتى أنها لاحظت الأحاديث الجانبية التي كانت من أهل مراد كانت تشعر بحديثهم عنها ولكن لا تعلم ماذا يقولون.

ما إن انصرف الجميع حتى جذبها من ذراعها بعد أن كانت جالسة فاسقطها أرضًا قائلًا لها:

- قومي بتنظيف المنزل قبل أن ننام لا أريد تلك الفوضى.

استندت على الكرسي الذي بجانبها وهي تنظر له في ذهول قائلة:

- لم تبدلت هكذا؟؟ أم أنك رحلت مع من كانو هنا والذي أمامي الآن شخص آخر؟!!

- أنتِ لا تسألين في هذا المنزل، أنتِ تتلقي الأوامر فقط.

- حقًا.. أخبرني بدون سؤال إذن من أنت فلا أرى أمامي سوى صورة من زوجي الذي دخلت منزلنا بدونه والذي أحببته.

لم يجبها بالكلمات بل بصفعة قوية على وجهها شجت شفتها وأسالت الدماء منها وسحبها إلى غرفة التعذيب المسماة بغرفة النوم وقيد يديها تحت يديه وخصلات من شعرها عالقة فيها، لم تستطيع أن تبكي في صمت هذه المرة، بل بكت وصرخت ونشجت بملء ما فيها حتى أنها لم تغمض عينيها، كانت تريد أن توثق تلك اللحظة لتراه كما هو على حقيقته وحش أشعث وأنفاسه تلفحها وتحترق بها تنتفض من الخوف منه كانت صورته مشوشة بفعل الدموع التي كانت تملأ روحها التي شارفت على الموت.

***

(12)

ليس هناك أسوأ من أن تتعلق بأمل خائب، لا تدري إلى أين المسير معه لا يهم بالنهاية هو خائب يشوبه الكثير من الظنون ورؤيته ضبابية وإن صح التعبير فلا يمكن أن يقترن الأمل بالخيبة بل نحن ما نريد أن نسميه أملًا فتلك هي رؤيتنا لأغلب الأمور الضبابية الغير محددة اللون، نطلق عليها أملًا لنمضي معها قدمًا وبالنهاية نصاب بخيبة بل خيبات لا نهائية من الآمال الرمادية، الأبيض والأسود لونان يلونان حياتنا باللون الرمادي فللرمادي أشكال عديدة فالأحمر من الممكن أن يكون رمادي حينما يكون دمًا تتركه ليتجلط ثم يشوبه العفن كل الألوان تصبح رمادية حينما تختلط ببعضها البعض وحينها تألفه وتعتاد عليه ولا تدري كيف قبله كانت الحياة كيف كانت ألوانها فتؤثر الصمت بأنها كانت بلا لون وأنها أصبحت بلون واحد كلون الغيوم عندما تنبؤنا بزخات مطر.. لا هي تمطر ولا هي تبتعد تنذرنا فقط بغياب شيءٍ ما تُرَاهُ شيئًا ملموسًا أم أنه بداخلنا.. عيوننا الداخلية تأبى أن ترى أي شيء سوى الداخل.

أجلس أستجدي منها أن تبعث لي برسالة جديدة وكيف لي بحل تلك الرسالة الأخيرة مازال صوتها يتردد في مسامعي ولا يكف " المسبحة التي تسألني عنها إنها لشيخ هو من قتلني لا تتركه يهرب بفعلته ". وأي شيخ هذا الذي سوف يقدم على تلك الجريمه أكاد أجن.

صفعته ضربة قوية من الصداع الذي أصبح لا يفارقه مع أنين صوتها الذي يتردد داخل عقله بلا انقطاع يهوي على رأسه كمطارق حديدية لا تكل ولا تهدأ جعلته

يمسك رأسه بكلتا يديه لعلها تكف عن قرعها المتوالي ولكنه وجد عيناه تتعلقان بالثلاجة التي ترقد بداخلها نيرة فإذا به يرى رقمها قد تبدل أمامه إلى (102) فرك عينيه بقوة إلى أن وجدها عادت إلى طبيعتها من جديد (5) بدأت الأسئلة تتصارع من جديد في رأسه، ماهذا الرقم؟، وعلامَ يدل؟!.

طرق المكتب بيده وصرخ بأقصى ما عنده " لماذا تفعلين بي هذا!؟؟ لماذا؟؟؟، يأتيه عم أحمد مهرولًا وهو يضع كفه على فمه مشيرًا إلى حازم بأن يصمت قائلًا له همسًا.

- اهدأ أرجوك نحن في مشرحة لا نريد أن نتأذى.
- ليس بي عقل لما تقول الآن اتركني الآن.. انتظر بل أنا من سأتركك
- أين ستذهب وتتركني وحدي هنا؟؟
- لا تخاف أنا من صرخت فإن كان هناك لعنات ستصب عليَّ وحدي ولكن أي لعنة ستصيبني أكثر من هذا.

ترك عم أحمد وسحب حلته التي كانت تدفئ المقعد بغير اكتراث ومضى.

***

تدخل صفيه والدة نيرة القتيله مقتحمة مكتب المقدم عماد وهي تتوسل إليه في أن يجعلها ترى ولدها الذي يجدد حبسه على ذمة القضية والعسكري الواقف أمام مكتبه يجذبها من ذراعها ويكاد أن يضربها لما فعلته وسيحيل حياته إلى جحيم ولكنها لم تأبه له أو بما يعتمل في رأسه أو كادت أن تهم به يداه لولا أن أوقفه عماد بكلمة منه وأشار له بأن يخرج، تنهمر الدموع من عينيها لقلة حيلتها ولأنها لا تملك مالًا ولا معيلًا بعدما تم القبض على صلاح لا تستطيع أن توكل محاميًا حتى يستخرج لها تصريحًا لرؤية ولدها.. شعرت أنه ذاهب منها لا محالة في طريق لا عودة منه فلا سبيل للفكاك من قبضة الاتهام المُحكَمَة عليه، يقابلها عماد باقتضاب بعدما أمر العسكري بأن ينصرف قائلًا لها:

- ماذا هنالك وكيف تتجرأين في الدخول عليّ هكذا؟؟

- اعذرني أرجوك، أريد رؤية ولدي، أريد الاطمئنان عليه يكفيني ما حدث لأخته أرجوك.. أستحلفك بالله لن آخذ وقتًا طويلًا.

نظر لها عماد طويلًا وهناك فكرة ما تعتمل في رأسه، نهض من على كرسيه ووقف أمامها فإذا بها تركع تحت قدميه تحاول أن تستجديه فإذا به ينهضها قائلًا:

- أستغفرالله، انهضي لا داعي لذلك سأجعلك ترينه لا تقلقي

فإذا بها تجهش بالبكاء وتمسك يده تحاول أن تقبلها فيسحبها بسرعة قائلًا لها:

- اجلسي يا أم صلاح أريدك في كلمتين قبل أن أبعث لصلاح.

جلست صفيه وهي تحاول أن تكفكف دمعها المنهمر بلا إرادة منها قائلة بصوت متهدج:

- أنا تحت أمرك، تفضل.

- الأمر لله، أريدك أن تقنعي ولدك أن يعترف وأعدك أن آتيه بحكم مخفف، فمن الممكن أن تقيد القضية كقضية شرف، خمس سنوات ويعود إليكِ من جديد

صرخت المرأة المكلومة حتى أنها وضعت كفها المجعدة على فمها وبدأ أنينها يزداد ولكن مع أَنَّاتها خرج صوتها متقطع لاهث.

- ابني لم يفعل شيئًا صدقني ونيرة ابنتي أحسنت تربيتها، فلا يغرنك ضيق حالنا فلم تكن ابنتنا بغيًا.

حاولت أن تلتقط أنفاسها ومسحت بطرف غطاء رأسها عينيها قائلة له:

- دعني أراه، سأتحدث معه قليلًا وأعدك أن كل شيء سيحل.

لمس عماد في عينيها الصدق فيما تقول، فليس هناك أصدق من أم مكلومة في أبنائها، فضغط على زر الاستدعاء فإذا بالعسكري يفتح الباب قائلًا (أفندم)، أمره بأن يأتي بصلاح من حجزه بعدما رماه بنظرة حارقة جعلته يخسف بصره، وبعد أن أتى صلاح رمقه عماد بنظرة متفحصة وعلق ناظريه بهما قائلًا لهما:

- سأترككما قليلًا.. لعلني عندما أعود أجد شيئًا مختلفًا يحل تلك القضية.

غادرهما ولكنه لم يغلق الباب على آخرة تركه مواربًا ولم ينتبها له فقد صفعه

قبلها ليوحي لهما أنه قد أُغلِق وظل واقفًا على الباب وما أن خرج حتى ارتمى صلاح في أحضان أمه يجهش بالبكاء كالأطفال، نكبر ونكبر ولا تزال صدور أمهاتنا ملجأ لنا في لحظات ضعفنا، أحيانًا نأبى أن نترك دموعنا تنهمر بداخلهم وريثما تسقط حتى نسرع في أن نمسحها وكأننا نخجل من دموعنا التي تتساقط على عتبات صدورهم التي كبرنا عليها، هكذ نحن يكاد يقتلنا الكبرياء، ويا ليتنا تخلينا عنه في تلك اللحظات حتى لا نندم عليها عندما نفقدهم ذات يوم، نتجرع من الآلام ما لا يطاق عند لحظات ألم نشتاق فيها إلى تلك الصدور الدافئة التي لطالما نادتنا بِحُنُوٍّ إلى أن خبتت وخفت نورها ووارها الثرى.. تبًا لكبريائنا اللعين.

وضعت كفيها التي ارتسمت عليهما خطوط الزمن القاسية على وجهه قائلة له:

- كيف حالك يا بني.

نكس رأسه لا يريد أن يرى كَمّ الحزن الذي بداخل عينيها منزلًا كفها من على وجهه قائلًا لها:

- وكيف لي أن أكون!!

- اتركنا من كل هذا يا ولدي فلتقل الحقيقة.

- أي حقيقه تريديني أن أقول بالله عليكِ، أنني جَبُنْتُ.. ولم آخذ لها حقها، أنني كنت كفأرٍ مذعورٍ اختبأ من الفضيحة.. كان يجب أن أقتله ولكنني تخليت عنها وتركتها.

- أنت لم تَجْبُن ولست وحدك ولكن لم يكن في أيدينا شيء لنفعله فلتقص كل ما حدث طيلة الثلاث شهور واثنتا عشرة يومًا الماضية.

- مازلتِ تحسبين ما مضى يا أمي.

- وكيف لي أن أنسى تلك الفترة التي تبدل فيها حال أختك.

- لم يتبدل حالها فقط بل جميعنا تبدلنا.. انظري ما نحن فيه.. يريدون أن يغلقوها كقضية شرف، هل تصدقين هذا؟!

- نعم أعلم.. ولكن إن أخبرناهم بكل ما حدث كل شيء سيتبدل.

- كيف سيتبدل بالله عليكِ.. تريدينني أن أفضح أختي وهي بين يدي الله.

- ليس هناك فضيحة.. هذا قدر الله.

- وَلِمَ لَم تقولي هذا قبل أن يتم ما حدث

خَبَّأت وجهها بطرف غطاء رأسها باكية يخرج صوتها مكتومًا من خلفه قائلة:

- لم أكن أستطيع التفكير، ولكن الآن.. لا أستطيع أن أفقد كليكما، إن لم تتكلم أنت سأتكلم أنا.

- أمي أرجوكِ.

- أنا من أرجوك كفى لم أعد أستطيع أن أتحمل.

- تحملي قليلًا كل شيء سيظهر بدون أن نسيء لها أرجوكِ يا أمي اذهبي الآن.

تركته وعيناها معلقتان به حتى كادت تنكفئ على وجهها، سرعان ما غادر عماد الباب مدعيًا أنه يبحث عن سجائره في جيبه وما أن رآها حتى اعترض طريقها قائلًا:

- أرجو أن يكون كل شيء على ما يرام مثلما اتفقنا.

نظرت له نظرة منكسرة قائلة:

- سيظهر الله الحق يومًا ما يا ولدي.

تركته ومضت.. وهناك طاحونة من الأفكار في رأسه لا يستطيع أن يوقفها ولم يكن أمامه خيار سوى أن يلف معها ويدور لعله يمسك بشيءٍ ما يجعله يهدأ قليلًا.

***

عادت صفية أدراجها والدمع يكاد يحفر وديانًا على قسمات وجهها التي طمستها آثار الزمن وكأنها كان ينقصها تجاويف تحولها من إنسان إلى جبل تنحت به أهوال الرياح فينتقص كل يوم منه جزءًا فيصبح خاويًا ويكاد أن يُقتلع من مكانه، استقبلتها سوسن هلعة مما هي فيه فدفنت صفية وجهها في غطاء رأسها وبكت بلا صوت سوى رجفات متتابعة من جسد أنهكه القهر ثم أخذت نفسًا عميقًا وكأنها شهقة الموت ومسحت وجهها وزاغت عينها في الفراغ بادرتها سوسن قائلة

- ماذا حدث يا أمي.. هل التقيتِ بصلاح.. هل وافقوا أن تريه.. هل آذوكي هناك أخبريني.

طوفان من الأسئلة هطل على رأس المسكينة لم تستطع أن تجاري لهفة سوسن التي يكاد قلبها يتفطر من شوقها وخوفها على صلاح خطيبها، فلم تجيبها إلا إجابة مقتضبة.

- لا يريد أن يخبرهم بالحقيقة.

برقت عيني سوسن ووضعت كفها على كتف صفية قائلة:

- إن لم يخبرهم سأخبرهم أنا.. لم أعد أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا.. لا تقلقي يا أمي.

وما أن انتهت من كلماتها رمت بجسدها داخل أحضان صفية لتربت الأخيرة على ظهرها ربتات منكسرة يملؤها قلة الحيلة، ثم همست:

- لله الأمر من قبل ومن بعد يا ابنتي.

ثم ران بينهما الصمت الذي ينبئ بضياع الحيلة أمام ما لا يستطيعان تغييره ولكن لن يظل الأمر هكذا طويلًا!.

* * *

obeikandl.com

(13)

البحث عن الحقيقه شيء مرهق وَقَلَّمَا نجد أحدًا مهتمًا بذلك في زمنٍ أصبح أسهل شيء إغلاق الملفات على كَمّ من الظلم الذي يحيل حياة المظلومين إلى دمار، لم يكن عماد من هؤلاء الذين يستسيغون الظلم كان دومًا يريد أن يستمع إلى صوت الحق ولكن العدل له أوجه عديدة فكيف يصل للعدل بدون دليل وإثبات عليه ولكن كان دومًا يعاني من ذاك الصراع الداخلي يريد أن ينهي القضايا ولكن أن تكون على بينة فهو شيء مرهق للغاية يأخذه من منزله ومن زوجته ومن أبنائه، في كلتا الحالتين يظلِم، دومًا ما ننصاع لواجباتنا المهنية على حساب واجبات أخرى معتبرين أنها الهدف الأسمى.

كان يقدر لزوجته احتمالها له.. لم تَشْكُ يومًا من ظروف عمله الشاقة التي تسرقه منها فلنقل أنها اعتادت تلك الحياة لما كانت حياة أبيها العسكرية تحتم عليها أن تتحمل مثلما تحملت أمها فيما قبل أن تكون أبًا وأمًا وزوجة تحت الطلب وقتما يتاح ذلك.. آثرت أن تكون تلك الزوجة التي تقف خلف زوجها ليستند عليها وليست تلك الزوجة التي تقف حجر عثرة في طريقه فيتجاهله ويقف عليه ليحقق ما يريد.. فلنقل أنها كانت تحب عماد حبًا جمًا يخلق مئات الأعذار ليستكمل مسيرته.

يهاتف عماد الدكتور حازم لعله يخبره بأي شيء ولكنه لم يزده إلا حيرة ولكنه جعله يفكر في شيء آخر لعل التحريات المكثفة تفضي إلى شيءٍ ما لا يعلم كنهه ولكنه سيحاول من جديد بعدما أدار الحوار الدائر بين صلاح ووالدته، سحب ورقة أمامه

وأمسك بقلمه ليكتب عليها بخط كبير (الحقيقه).. وأخذ يتساءل في نفسه " ترى ما هي الحقيقه التي تأبى أن تفصح عنها؟ ولم تعدّ الحقيقه فضيحة؟ "، ترى ماذا يكون فضيحة في تلك المنطقة الشعبية!! ومن هو الذي كان يحتم عليك قتله؟؟ إذن هناك طرف آخر!!.

***

بعد أن أُنهِكَ حازم في قضاياه منها ما نجح في حل طلاسمها ومنها ما لم يحتج شيئًا سوى تقارير روتينية بلهاء يذهب إلى منزله ليمارس طقوسه العزباء يحضر طعامًا بدائيًا ليسد جوعه قليلًا ويجلس أمام حاسوبه يتصفح بعض المواقع ليس لشيء سوى تمضية الوقت الرتيب وبعد أن تملكه الملل آثر أن يمضي وقته على (اليوتيوب) لعله يرى شيئًا مختلفًا مقاطع مضحكة أي شيء تافه لعله يخرجه من تلك الدائرة المفرغة التي سقط بداخلها ولم يعد يرى في أي اتجاه سوى الأقواس المبتورة التي تحيط به وبعد أن كان متكئًا على جنبه انتفض مذهولًا مما رأى، فقد رآها رأي العين إنها هي نيرة تجلس متلفحة بغطاء رأس يبرز من خلفه شعرها على استحياء ويقف أمامها رجلٌ ما يرتدي ثوبًا أبيض وعمامة خضراء وحول رقبته مسبحة كبيرة يضع يده على رأسها ويردد

((واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم ولو كانو يعلمون))، كانت واضحة أمامه صوتًا ورؤية الآية ارتسمت أمامه بملء الشاشة ولكنه ما أن حاول أن يتبين أكثر من نيرة حتى وجد كل شيء قد ذهب أدراج الرياح أغلق حاسوبه وهو يزفر زفرات حارقة تَنُمّ عن غيظ شديد وهو يحدث نفسه " مازلتِ تضنين عليَّ بإشاراتك ولكن لعلنا نحن من نبطئ في التحريات، هرع إلى المصحف

ليبحث فيه عن الآية كان يعلم أنها آية السحر ولكنه فوجئ عندما وجدها تحمل رقم (102)، أمسك هاتفه لم ينتبه إلى كم تشير الساعة ولكنه كَوَّنَ أرقام عماد وهاتفه على الفور، بعد عدد رنات طويلة استجاب عماد لرنين هاتفه وجاوب بصوت خامل ينم عن غفوة ألمت به على مكتبه بعد أن افترش ذراعيه كوسادة مؤلمة قائلًا:

- حازم ماذا هنالك؟!!.
- أيقظتك من النوم؟.
- كلا فقط غفوت قليلًا، أخبرني هل هناك جديد؟
- أكاد أن أجن بسبب تلك القضية.
- حتى أنا لي ثلاثة أيام لم أذهب إلى منزلي، تكاد زوجتي أن تطلب الطلاق.
- اتركنا من هذا، لقد رأيت شيئًا الآن حيرني ولكن أعتقد أنه سيفيدك في بحثك.
- حقًا!! ما هو؟.

بعد أن قَصَّ حازم على عماد ما قد رآه وحكى له كل شيء حتى الرقم (102) الذي شاهده على الثلاجة التي تحوي جثة نيرة وعن رقم الآية الذي يحمل نفس الرقم وعن ظنونه واستنتاجه التي توصل إليها استطرد قائلًا:

- عماد أعتقد أن نيرة كان بها مَسًّا أو شيئًا من هذا القبيل عليك أن تسير في هذا الاتجاه، حتمًا الجيران سوف يخبروك عن هذا بعد أن تضغط عليهم أو حتى صلاح.

تردد اسم صلاح في مخيلة عماد وكلماته عندما قال فضيحة، وهل يكون هذا مصدرًا للفضيحة في الأوساط الشعبية، بل إن في كل يوم وليلة هناك منزلًا يأتيه دجالًا يدّعي أنه يخرج جنًا أو يفعل شيئًا ما، فهذه معتقداتهم.. أين الفضيحة في هذا، أخذته أفكاره بعيدًا ولم يعد إلا على صوت حازم وهو يناديه

- عماد عماد، هل مازلت هنا؟
- نعم نعم.. أنا معك سأرى ماذا سأفعل في هذه النقطة.

يغلق حازم الخط ويترك عماد في دوامته من جديد على أن يستأنف تحرياته من جديد في الصباح فحتمًا سيجد طريقة ليحل بها تلك العقد المتتالية في تلك القضية.

***

يذهب عماد في الصباح مع ضابطين آخرين لاستئناف التحريات التي أرهقتهم وقفوا وهم تائهين لا يعلمون من أين يبدأون هل يسألون من سألوهم من قبل أم يبدأوا البحث من أطراف خيوط جديدة.

إذا بعماد عيناه تقعان على سيدة عجوز تجلس على باب منزلها وكأنها تعد عدد الحصى المتجمع في الأرض، وَجَّهَ من معه إلى الأماكن التي يتحرون فيها واحدًا منهم وجهه إلى البائعين الذين يفترشون الأرض ببضاعتهم والآخر وجهه إلى إعادة سؤال الجيران الذين تم التحري منهم من قبل ولكن هذه المرة على أن يتم التحري بشكل مباشر عن رجل يتردد على تلك المنطقة وأوصافه ومكانه، أما هو فقد جذبته العجوز كمغناطيس وهي تعد الحبات رمقته بنظرة وكأنها تناديه من تيهه الذي كان فيه وريثما وجدته في طريقه إليها حتى عادت تعد حصاها من جديد غير متلفتة إليه.

جلس بجانبها وهو ينظر إلى الحصى المتجمع أمامها المرتب بنظام بالغ، لم تُعِرْهُ اهتمامها وكأنها معتادة على مثل هؤلاء المتطفلين، أخرج سيجارته من علبتها وشرع في إشعالها وهو يتابعها في صمت وما أن شحذ نيكوتينه منها ونفث دخانه الأزرق في الهواء حتى استجمع الكلمات في رأسه ونظمها على لسانه قائلًا لها.

- كيف حالك يا أمي.

لم تنظر إليه واستمرت في عد الحصوات وهمست قائلة:

- الحال لمن يملك الحال يا ولدي.

- ماذا تفعلين بتلك الحصوات، هل تفتحين الطالع؟

امتضعت وهي مستمرة في عدم اكتراثها به قائلة:

- الطالع في علم الغيب يملكه من لا يغفل ولا ينام.

- ونعم بالله، شعرت وكأنكِ تناديني من بعيد.
- المنادي يناديك وأنت لا تسمع فهل القلوب أقفالها من حديد.
- ماذا تعنين يا أمي، لا أفهم شيئًا.
- ستفهم حينما تفتح قلبك للحقيقة.

فرك عماد رأسه ثم قرر أن يخرج من هذا الهذيان بسؤال العجوز عن نيرة.

- أخبريني يا أمي.. هل كنتِ تعرفين نيرة.

تنهدت وأجابته.

- كنت أعرفها إلى أن غابت.
- تقصدين قتلت.
- لا يا ولدي لقد غابت شمسها منذ زمن

لم ينتبه عماد لسيجارته التي كادت تحرق إصبعه وما أن لفحته سخونتها حتى رماها بعيدًا وأخذ يشعل التي تليها وهو ينظر للعجوز التي تحصي الحصى ثم استطرد قائلًا:

- ماذا تفعلين بذلك الحصى
- أعدهم ألا تراني؟؟
- بلى أراكِ.. إذن وما عددهم هَلَّا أخبرتني.

في تلك اللحظة نظرت له في عينيه بعمق وهمستها إيمانًا بصوت لا يشبه صوتها المرتعش الذي يملؤه الوهن الذي كان منذ قليل ثم قالت:

- ثلاثة أشهر وأثنتي عشرة يومًا.

جحظت عينا عماد من مكانهما وانتفض واقفًا ومازالت عيناه معلقتان بالعجوز حتى سحبه صوت زميليه ينادون عليه، فتركها وذهب إليهما فقال له زميله.

- هل تقرأ تلك العجوز الطالع جيدًا
- لم أقرأ طالعي قَطّ.. ولكنها كانت.. ثم صمت عندما التفت ليشير إليها

فلم يجد المرأة العجوز وكأنها تبخرت، ترك زميليه وهرع إلى مكانِ ما كانت تجلس

obeikandi.com

وجد الحصوات ملقاة على الأرض فجلس وعدهم في سرعة وجدهم بالفعل (102) وهو مجموع ثلاثة أشهر واثنتي عشرة يومًا، أخذ يلهو بهم في يديه وهو ينظر إلى زميليه ثم رماهم أرضًا وعاد إليهم من جديد ليسألهم عن ماذا أسفرت تحرياتهم متجاهلًا الجنون الذي أَلَمَّ به منذ قليل بعد أن ترددت جملة لا إرادية في عقله " من الواضح أنني أصبت باللعنات التي تصيب حازم "، ما هذا الهراء!!

***

أما حازم فقد عاد لنيرة من جديد، بدأ في تحليل السائل المنوي الذي ظل عالقًا في جسدها وجد أنه مختلف عن السائل الذي استخلصوه من صلاح فكان ترجيحه أنه من المحتمل أن يكون الأخ قد انتهك أخته ومن ثم خنقها حتى لا تفصح ولف حباله حولها لتكون في الظاهر حالة انتحار، وَلِمَ لا في زمن انتشر به زنا المحارم كالنار في الهشيم، نظر إلى السحجات التي على عنقها فلم يفهم شيئًا وازدادت علامات الإستفهام أمام عينيه حتى كادت أن تعميه من كثرتها ولكنه قد توصل إلى تحليلٍ آخر!.

***

(14)

تظل أحلامنا تطاردنا في كل وقت وكل حين، ترى هل نهرب منها أم أنها ضلت الطريق وحينما ترى ظلنا المترامي أمامها من بعيد تركض لتلحق بنا فيكون الوقت قد مر ومضى على تحقيق الأحلام الماضية، ولكنها تظل بالنسبة لنا شبح يطاردنا أحيانًا يكون أنيسًا لنا يهون علينا الأيام وأحيانًا أخرى يصبح الحلم كابوسًا نعيش فيه ومن أجله.

هكذا كانت تفكر فريدة فيما يحدث لها وما آل إليه حلمها الذي كانت تحلم به، وكلما رأت فراشة ذَكَّرَتهَا بنفسها وبذاك الضوء الذي تراءى لها من بعيد، لم تكن تعلم أنه لم يكن ضوءًا بل كان نارًا أحالت حياتها إلى جحيمٍ لا ينتهي وربما ينتهي بعد أن يُجهِزَ عليها كليًا.

تجلس على فراشها تتصفح ألبوم صور زفافها، تنظر لمراد بهيام وتتلمس وجهه على تلك الطبقة البلاستيكية وكأنها تنتظر أن تتلمس وجهه وعيناه وشفتيه، تحدثه بأناملها الصغيرة وتسقط دمعة حارقة من عينها على وجهه فتشوش وجهه فتسرع وتمسحها خوفًا من أن يبرز لها من بين الصفحات السميكة وينهرها لأن دموعها سقطت على وجهه وكادت أن تسقط على حلته الثمينة فتدنسها، بينما هي سارحة في رقصتها معه فوجئت به أمامها ينظر لها باستهزاء ويبتسم تلك الابتسامة الجانبية ثم اقترب منها وأخذ الألبوم من بين يديها وبعد أن تصفحه قليلًا بغير اهتمام أطاح به أرضًا قائلًا لها.

- مازلتِ على طفولتك الساذجة، لو كنت أعلم أنكِ بتلك البلاهة ما كنت أقدمت وتزوجت طفلة مثلك.

نظرت إلى النافذة التي بجوارها وهي تتحاشى النظر إليه قائلة:

- لم أعد طفلة فقد كبرت على يديك.

ضحك بسخرية ثم أكمل.

- حقًا، أريني كيف كبرتي يا طفلتي المدلَّلة.

تجاهلت تلميحه وَهَمَّت تنهض من على فراشها فأجلسها بضغطة من كفيه على كتفيها قائلًا:

- لم آذن لكِ في أن تنهضي بعد.. أريد أن نستكمل حديثنا، أخبريني كيف كبرتي.

أزاحت كفيه من على كتفيها وهي تنظر بانكسار إلى موضع قدميه قائلة:

- اتركني أرجوك، لا أريد ان أتحدث بهذا الشأن.

تعجب من جرأتها، فكيف تزيح كفيه من عليها

- حقًا لا تريدين أن تتحدثي بهذا الشأن، إذن في أي شأن تريدين أن تتحدثين ها أخبريني؟!.

نظرت له مستفسرة، وهي تحدث نفسها، " أحقًا تريد أن تعلم في أي شأن أريد أن أتحدث أم سيؤل الحديث إلى حديث آخر سئمته!! "، وكأنه قرأ ما ترنو إليه عيناها في تلك النظرة البائسة فأكمل قائلًا:

- أها فهمت، تريدين أن تتحدثي عن الحب والغرام ولماذا أنا هكذا؟ هل هذا صحيح؟؟

رفعت حاجبيها تعجبًا مما قال وكأنه حقًا يريد أن يتحدث بهذا الشأن فأومأت برأسها قائلة على استحياء

- نعم.. هذا ما أريد

اقترب منها ببطءٍ شديد بعد أن كان يتحرك أمامها كبندول ساعة لا يهدأ ولا يكل وكأنه يقف في محاضراته يلقي محاضرة قوية.

- حبيبتي لا شيء يدوم.

ثم أمسك بشعرها في حركته الأثيرة وجذبها منه بقوة قائلًا

- هكذا أنتم يجب أن تُعَامَلْنَ بتلك الطريقة، ماذا هل تظنينني رجل ضعيف.

وما أن نبس بكلمة رجل مع الألم المترامي في رأسها جراء جذبته القوية قالتها بهدوء مصطنع

- رجل عن أي رجولة تتحدث، ليست هكذا الرجولة

اشتعل منها غضبًا، فجذبها إليه من خصلات شعرها التي لا تزال في قبضته ليشكلها كحبل عقد همته على أن يربطه على كفه لتقابل وجهه وهو منتصب أمامها فتألمت حتى كادت أن تصرخ فآثر أن يجعل الألم ألمين وضربها فوق ركبتها بركبته فخارت قواها وسقطت على ركبتيها أمامه تبكي من الألم، تركها هكذا وخرج من الغرفة ليشرب كوبًا من الماء ليمزج ارتواءه بصوت أنينها وبكاؤها الذي يجعله منتشيًا, وما أن عاد إلى الغرفة حتى فتح خزانة ملابسها وأخرج لها ثوبًا من ثياب السهرة الذي انتقاه بعناية ثم رماه على الفراش مخبرًا إياها أن تجهز حالها لأنهم مدعوون على حفل في المساء، بعد أن كانت تبكي كفكفت دمعها وتناست ألمها وارتسمت ابتسامة على وجهها فهذا معناه أنها ستحظى على قليل من اللطف منه الليلة.

من الغريب أن تكون المملكة سجنًا لا يطاق، وأن تدنس أروقتها بأحذية الداخلين بل وتلوث حوائطها بدماء يكسوها القهر وأن تتبدل كل المفاهيم في رفقة الآخرين، عشقت الاجتماع بالناس من فرط رقته التي يعاملها بها، وحديثه الرائع عنها أمام الأصدقاء، لم تعد تطيق المكوث في مملكتها القذرة، بل آثرت أن تكون نقطة في بحر الأصدقاء على أن تكون ملكة متوجة في قصر خرب مهترئ لا يملأ جنباته سوى الدموع والأنَّات وهذا البكاء الصامت الأكثر وجعًا من أي شيء آخر وذاك الصراخ والإهانات الملقاة في طريقها وكأنها الشوك الذي تسير عليه في كل صباح ومساء، ليس هذا فقط بل إن الأخريات كانوا يحسدونها عليه ونظراتهم إليه تكاد تلتهمه من

فرط رقة تعامله معها. كانت تشعر بهم ينظرون لها باحتقار وشفقة وأحيانًا حقد لا تعلم سببه.

تلك الاجتماعات التي كانت مجرد هدنة من عنفه معها الذي لا ينتهي بين تلك الجدران الباردة واستئنافًا لازدراء من حولها لها ومزيد من النظرات المحتقِرة، في كلتا الحالتين كرهت التواجد معه.

أحيانًا كثيرة تكرار الأشياء يصنع منا كائنات متبلدة المشاعر، لا مبالية بما يحدث أو سيحدث ولكن هل أخرج مراد كل ما في جعبته أم ماذا!!.

تتصارع الأسئلة بداخلها، تحاول أن تمسك بتلابيب روحها وتجعلها تصمد قليلًا ولكنها كلما حاولت أن تهم بها واقفة تجدها تنهار من بين يديها غير مبالية بشحذ طاقتها من جديد وكأنها اعتادت على الانهيار، أم أنها لا تجد إجابة لذلك السؤال الذي يراودها.. " لمن أصمد وَلِمَ أشحذ طاقتي " وكأنها كانت تحتاج إلى مبررًا يجعلها تصمد قليلًا.. ودارت داخل دائرة الحيرة التي غَلَّفَتهَا من كل جانب تجد تلك الكلمات مطبوعة داخل رأسها " ماذا أفعل أمام كل تلك الازدواجية في التعامل ترى إلى أين ستقودني يا من يطلقون عليك زوجي؟!!، ترى هل سيكون هناك بارقة أمل في تلك الحياة المقبضة! "، كانت تأمل ربما تكون علياء على حق ولكن لم ترجح هذا الاحتمال، ازدادت الهوة بينها وبين أهلها أو ربما نسوها أو تناسوها.. لا تعلم ولكن ماذا ستحكي أو تفضي لمن!.

أصبح كل شيء سِيَّان تنتظر أن تتغير الحياة ولكنها كانت على نسق واحد كخط الموت الذي يصدره الجهاز الموصل بالقلب لم يعد هناك شيء ينبض بالحياة الرتيبة التي تعيشها بلا أي هدف.

***

(15)

هناك من يبحث دومًا عن مبررًا لينتهي من تلك الحياة وهناك من يعيش الحياة كسيمفونية رتيبة لا يعزف عازفها إلا على وترٍ واحد يدخل في نفسك التوتر في بادئ الأمر تشعر بالملل مؤنسًا لك ولكن بعد ذلك يصبح العزف الرتيب يتخلل روحك كقطرة ماء متواصلة لا هي تنقطع ولا هي تزيد أو تقل، تسبب لك الجنون.

كان كل أمل فريدة في أن يكون هناك من تعيش من أجله أن يكون ما يدفعها لاستكمال تلك الحياة المؤلمة مع مراد ظلت تنبش بداخل حناياها عن أملٍ ما، ولكن ما تبحث عنه لا يوجد بالأرواح المتهالكة وكأنها هربت من نار أبيها إلى نارٍ أشد وألعن.

تمنت أن تنزوي داخل أحضان دافئة فلم تجد سوى برودة الثلج تتملكها من كل جانب وحيرة تخترقها في كل يوم وليلة لم تعد تتحدث كثيرًا كانت تستقبل ما يفعله معها بروتينية بلهاء تزيده جنونًا.. لم يكن ليتأثر مما تعاني منه بل كان يعلم ما يفعل جيدًا حتى ضرباته محسوبة مدروسة وكأنه يخطط لشيءٍ ما هو نفسه لا يعرف كنهه سوى أنه يريد أن يفعل ذلك.

الخداع تلك الصفة الحيوانية البحتة، تلك الصفة التي تعبث بحياتنا كقلم أسود يشوه صفحتنا البيضاء، خلق الخداع ملتصقًا بالذئاب والثعالب ليس إلا، للحفاظ على البقاء، أما نحن بني البشر يلتصق بنا فقط لنستمتع بألم بعضنا البعض.. إنه الإنسان أساء استخدام كل شيء حتى نفسه لم يتركها على فطرتها بل

آثر أن يدنسها بكل ما أوتي من قوة.. وبالنهاية يشكو الحياة. لم يحترف الإنسان شيئًا في تلك الحياة سوى الظلم.. وكأنه خلق له ليمتهنه.. يَظلِم فيُظلم فيشكو الظلم.. إنها منظومة الظلم اللامتناهية.. ولكنها الأقدار وحدها هي من تستطيع أن تصفي الحسابات فلننتظرها معًا.

يراود فريدة حلمًا في منامها لا ترى فيه سوى تاريخًا يأتيها معلقًا في الهواء ولكنه مشوشًا مشوهًا لا تدري ما هو وعندما تقترب من التاريخ الضبابي الذي يتحرك بسرعة أمامها لعلها تستيقن منه فإذا بمراد يأتيها بوجه قبيح وكأنه مصرًا أن يكون في أحلامها بوجهه الحقيقي الذي يختبئ خلف تلك الملامح فيمرر يده بداخل التاريخ الضبابي ويفرقه بعيدًا وينثرة وسط نظراتها المذهولة ويضحك ضحكات عالية مفزعة وهو ينظر إليها بعينان يكاد يخرج البرق منهما فتصحو فزعة لا تفهم شيئًا ممَّا رأت.

يظل الحلم يشغلها طيلة اليوم تفكر في معناه وماذا يكون ذاك التاريخ المبهم الذي لم تعلم سوى من هيئة تكوينه أنه تاريخًا، يباغتها دواريسقطها أرضًا لتستفيق منه وهي على فراشها ونظرات حانقة من زوجها (الحبيب).. ما أن رآها استفاقت حتى بدأ في إسقاط لعناته عليها وأنه فزع حينما رآها مستلقية في بهو المنزل وكيف لم تستطع أن تسيطر على حالها وتترك جسدها ينهار مغشيًا عليه.. تبًا لحماقة هذا الرجل.. ومنذ متى نستطيع أن تتماسك أرواحنا حينما يتملكها الوهن،تجاهل وهنها بالكامل فتلقت لكماته الكلامية بنفس منكسرة وروح تائهه، لم يبالي بما تشعر به فاستمر يكيل لها الصفعات بلسانه الحاد حتى لم تتمالك نفسها وقامت تفرغ كل ما في معدتها الخاوية، ولكنه أيضًا لم يرحمها وكأن عذابها أصبح هواية له فلحق بها ليزيدها لومًا وعتابًا إلى أن انتهت من غثيانها همت بالخروج فأمسك بكتفها بقوة قائلًا لها:

- لم تتحملي كلامي ها.. أصبتك بالغثيان هذا ما تريدين قوله لي؟!

نظرت في عينيه مليًا وهي في عالمٍ آخر تحسب حساباتها النسائية حتى تتبين

مما هي فيه ولكنه لم يمهلها رَجَّهَا أكثروكأنه يريدها أن تستفيق من حالة التيه التي تملكتها قائلًا:

- أجيبيني.. ماذا بكِ، لم تعودي تتحملين أن تسمعي صوتي ها؟

نكست رأسها لتغوص بين كتفيها المضمومتين قائلة:

- أعتقد أنني حامل.

ألقت تلك القنبلة في وجهه وأزاحت كفيه التي أرخاهما من على كتفيها بعد أن تاه ناظريه في الجدار الذي أمامه، تركته يفكر وذهبت تستند على الحوائط لتصل إلى فراشها تتكور بداخل روحها كجنينها الذي يكمن بداخل أحشائها تحتضنه وتبكي، بكت كما لم تبكِ من قبل، انهمرت منها الدموع لا تعلم من أين أتت ولا كيف تستوقفها، لم تحاول أن تغلق أبواب الدموع ولكنها أنهكتها فبات جسدها يهتز كعصفور يرقص رقصته الأخيرة عندما يمسك به صائده المتحذلق.

ورغم بكاءها الذي شعرت به يخترق روحها لأنها أصبحت أسيرة صائدها بذاك الحمل الكائن داخل رحمها الضعيف، إلا أنها شعرت به تلك اليد الحانية التي سوف تخفف عنها كل ماهي فيه لمست فيه ذاك النور المترامي بداخلها، يولد النور من داخل الظلمات وكيف يكون نورًا وهو من رجل مثل ذاك الذكر.. أغمضت عيناها وتمنت وتمتمت بالدعاء بأن يجعله أملًا جديدًا تعيش من أجله.

ولكن إنها الأمنيات الباهتة التي تخلقها عقولنا المنهكة الخربة.. هي من تجعلنا نتوهم أن هناك شيئًا غير أنفسنا يستحق أن نعيش لأجله وكيف لنا أن نعيش من أجل الآخر إن لم نكن نحن قادرين على أن نعيش من أين لنا بتلك الطاقة التي ستجعلنا قادرين على الاستمرار.. وهم إنه مجرد وهم، فليس هناك أحد قادر على أن يجعلك تعيش سوى نفسك أنت فقط وليس أحدًا سواك.. وفي هذا الخطأ وقعت فريدة فحينما تمسكت بأمل جنينها.. تخلت عن أي شيء آخر سواه.

في أول محطة ظهر عنف مراد في معاشرتها كعادته فسقط منها بغير مبالاه منه فمن ذهب يأتي غيره لم يتركها حتى تشعر بنبضاته الضعيفة، تركها مضرجة بدمائها

التي كست الفراش لم يحزن ولم يتفاجأ ولم يغضب تركها هكذا تحتضن بقعتها وهي تتلوى من الألم وتغسلها ببكائها الذي لم يعد ينقطع عنها وما أن خرج من الغرفة حتى قامت تزحف على الأرض لتغلق باب غرفتها عليها لتختلي بدماء جنينها وتقيم حدادها الذي لا تعلم متى سينتهي.. ولكنها لم تكن تعلم أنها ذهبت بعيدًا مع جنينها الذي يرفرف في السماء وهو لا يزال نطفة ذهبت معه بروحها وحلت مكانها أرواحًا أخرى.

أهي أرواح حقًا أم مجرد أوهام؟.. ولكن مع رحيل جنينها بلا مبالاة من زوجها شعرت أنها بداية جديدة لاحتلال آخر من نوعٍ فريد تملكها.. وبدأت معه رحلتها داخل غياهب عقلها الذي لم يتحمل كل الصدمات حتى أهلها لم يعودوا يسألون عنها منذ زواجها سوى مرات معدودة وكلمات مقتضبة وكأنها ذهبت بلا رجعة وكيف تعود وقد تقطعت كل السبل هل تترك مراد لتعود إلى كل ذاك الخواء وكيف ستتحمل نظراتهم ونعتهم لها بالفشل الذي طالما نعتتها به أمها وأبيها.. صمتت لتستمع إلى هذيان روحها الذي لم يكف ولم يتوقف حتى حلمها المتكرر ازداد صراخه داخل عقلها وباتت لا ترى سواه تاريخ ووجه مصبوغ بالدم ولكن بات التاريخ واضحًا أكثر فأكثر كلما ازداد تكرار الحلم ازداد تشبثها.. وفي كل مرة تنتفض مستيقظة عليه 2016\6\6

حاولت جاهدة أن تتذكر ماهو هذا التاريخ ولكنها فشلت، كان هذا التاريخ منذ أقل من عام ولا تعلم لِمَ يطاردها في أحلامها!! ترى ماذا يكون؟؟.

* * *

(16)

يعقد عماد اجتماعًا مصغرًا مع زميليه ليسردوا سويًا التحريات التي تمت بعدما انتابته الحيرة من ذاك الرقم الذي ذكره له حازم والذي أيضًا قد ذكرته له العجوز، تضاربت الأقاويل في أن هناك رجلًا كان يتردد على منزل نيرة كانت هيئته غريبة بعض الشيء فهناك من يقول أنه عم لهم لكثرة تردده عليهم وآخرين يقولون على قدر ما عشنا معهم لم نر لهم عمًا ولا خالًا وفجأة ظهر هذا الرجل.. إنهم الناس لا يقولون دومًا الحقيقة إما يختلقون أو يرمون بكلام لا يعلمون مدى صحته من كذبه ولكن في كلتا الحالتين اتفقوا أنه رجل ظهر فجأة في حياة تلك العائلة البائسة ومن يوم دخوله والحياة تبدلت، فقد كانت هيئته غريبة ولكنها معتادة في تلك الأحياء ولكن أن يرتاد على منزلهم فهذا الغريب كما أن هيئته أحيانًا تفضحه وأحيانًا تخفي الذي وراءها.

تتصارع التساؤلات في رأس عماد " ترى من يكون هذا الرجل على حسب أوصافه من الممكن أن يكون دجالًا!! " ثم نفض رأسه من السؤال العابر قائلًا بلسان عقله.. إنها هيئة الكثير في تلك المناطق كونه يرتدى جلبابًا وعمامة لا يعني بالضرورة أنه قد يكون هكذا ولكنه عاد وسأل أحد زميليه.

- أخبرني يا ياسين ما هي أوصاف ملابس هذا الرجل بالتفصيل.

ينظر ياسين إلى الورق الذي أمامه قائلًا:

- جلباب أبيض، عمامة خضراء، ومسبحة خشبية في يده كبيرة بعض

الشيء، ويحمل معه شنطة بلاستيكية صغيرة دومًا. وأحيانًا كان يرتدي بنطالًا وجاكيت ولكن لم تكن لتفارقه العمامة لذا كان يبدو مظهره ملفتًا للنظر أكثر.

يتذكر عماد ما كان يقوله حازم له عن تلك الإشارات التي تبعثها نيرة له ثم انتفض واقفًا وهو يقول:

- إذًا هذا هو هدفنا، دجال من دجالين هذا العصر.

***

لا أزال أتفحص جثتها، كانت برغم إشاراتها البسيطة لي إلا إنها كانت تدفعني للبحث في أجزاء أخرى في جسدها بشكل أكثر دقة، في بادئ الأمر ظننت أن تلك العلامات عادية إلا أنها تشي بأنها علامات ضرب بعصا رفيعة على باطن قدميها ومن الواضح أنها متكررة لأن لنفس العصا علامات متفرقة على الجسد.. الكتف، والفخذ وباطن القدمين، آثار أيدي على الرقبة وجحوظ في العينان وتلك الشعيرات الدموية المنفجرة التي كست بياضهما غير أن الانتهاك التي عانت منه كان قبيل الوفاة، من ذا يكون قد عذبك هكذا يا صغيرتي ينظر إليها من خلف نظارته الطبية وهي تنظر إليه من بُعدٍ آخر هيئ له أنه يراها تدمع ولكنه ما أن مسح عينيه بإصبعيه لم يجد أثرًا لدمع، أتبكي الجثث حقًا!! نعم إنها تبكي ولكن في صمت مطبق لا أحد يشعر بها ولا حتى أرواحها التي غادرتها إلى غير رجعة.

ومع إمعاني في النظر إليها تبدلت جدران المشرحة أصبحت قاتمة اللون أكثر مما هي عليه وبدأ يكسوها الدخان وكلمات تتردد في الأنحاء مع دوامة كلمات تلف وتدور حولي لا أعلم ماهيتها وكأنها مكتوبة بلغة غير مفهومة أحيانًا رغم حروفها العربية المزخرفة ولكن كانت هناك جملة حَلَّقَت لي في الأفق مكتوبة بالدخان المتصاعد من المبخرة " بحق الله " كانت الكلمة تستند على كف رجالية من مظهرها الخشن ويتدلى منها مسبحة خشبية تظهر من تحت كم لقميص أو جلباب أبيض، وعندما حاولت الإمساك باليد حتى أعلم من صاحبها عادت غرفة المشرحة لحالتها من جديد واختفى كل شيء كأنه لم يكن، هرعت إلى هاتفي لأهاتف عماد فوجدته على علم بكل

شيء أنا فيه لا أعلم كيف ولكن يبدو أن ضالتنا دجال من مُدَّعِين العلاج الروحاني.. ولكن هل يقتلون هؤلاء حتى لو باسم الدجل!!!، وهل كانت نيرة ممسوسة حقًا.. لا أدري ويا ليتني أنتهي من كل هذا فقد ضاق صدري من كل هذا.

***

مازال عماد يبحث عن ذاك الدجال عن طريق تكليف من يعملون معه بالقضية بذلك ولكن وهو في غمرة إلقاء التعليمات والاتصال بهم ليعلمو ما توصلوا إليه يجد باب مكتبه يدق بالعسكري المكلف أمام مكتبه قائلًا:

- أفندم.. هناك فتاة تريد التحدث إليك
- لم تخبرك من هي؟
- اسمها سوسن وهذه هي بطاقتها.
- حسنًا أَدخِلْهَا.

يشعل عماد سيجارته وهو يترقب الفتاة التي تدخل لتقف أمامه والرعب يملؤها فليس هَيِّنًا أن تقف في قسم شرطة أمام مقدم.. لاحظ عماد توترها فابتدر الحديث قائلا: نعم يا.. ثم أعاد النظر في البطاقة ليتذكر الاسم كأنه قد نسيه فقط ليزيد التوتر.. يا سوسن خيرًا بماذا أستطيع أن أخدمك، انهمرت دمعتان من عينيها قائلة:

- لقد جئت بخصوص قضية نيرة

اعتدل عماد في جلسته واستند على ذراعيه على المكتب منتبهًا لها قائلًا:

- هل أنتِ صديقتها؟؟
- نعم أنا صديقتها وصلاح يُعَدّ خطيبي فقد قرأنا الفاتحة من فترة.

اعتدل مرة أخرى في جلسته قائلًا:

- أها.. صلاح.. وماذا تعلمين عن نيرة إذن هل عندك أي معلومات تفيد القضية؟؟
- لم يفعل شيئًا يا أفندم إنه بريء.
- ليس أمامي أي دليل على براءته.

- وأيضًا ليس أمامك أي دليل على إدانته.

نظر لها شذرًا وعيناه تكاد تخرج منها كرات من اللهب قائلًا:

- وهل أتيتِ لتعلميني عملي أم ماذا؟؟

- العفو يا أفندم لم آتي من أجل ذلك أبدًا.

- حسنًا أفصحي فليس عندي وقت لهذا الهراء.

تحدثت سوسن عما في جعبتها عن نيرة، هي تحكي وعماد عيناه تلتمع ويحاول أن يخفي اندهاشه مما تحكيه وما يأتيه هو وحازم من إشارات، وحينًا آخر يبتسم فقد أصبح على وشك أن يحل تلك القضية التي أصبحت كل عقدة فيها بحجم عقد حبال الحاويات، فكلمات سوسن تنبئ بانحلال تلك العقد بيسر وبدأت الحقيقة تتكشف رويدًا رويدًا وكأنه يحدث نفسه قائلًا " أين كنتي كل ذلك!؟ "، وكأنها قرأتها في عينيه فجاوبت بلا تردد بعدما انتهت من سرد التفاصيل التي أتت للإدلاء بها قائلة:

- صلاح ليس له ذنب، كنت أنتظر خروجه عندما تكتشفوا بطريقتكم أنه ليس له أي دخل بتلك القضية.. لم يقتلها صدقني هذا ما حدث.

- حسنًا يا سوسن.. سنفعل اللازم.. انصرفي أنتِ الآن.

خرجت من عنده عندما وجدته أنهى الحديث بتلك الكلمات المقتضبة ولم يعطها فرصة في أن تطمئن متى سيخرج صلاح من حبسه الذي طال، توجهت من فورها إلى صفية تهرول إليها وتحتضنها وتبكي والعجوز في ذهول ترى ماذا حدث!!

هَدَّأت من روعها وبعد أن انتظمت أنفاسها قليلًا قالت

- ذهبت إلى القسم يا أمي وأدليت بكل شيء أعرفه.. من الظلم أن نصمت لم يقتلها ولم تمتد لها يداه صلاح كان يحبها كانت روحه لم تكن أختًا له فقط كانت له بنتًا وكان لها أبًا.. كيف يا أمي نتركه يعاني ويلات الفقد والظلم سويًا والتعذيب والمهانة في شيء لم يقترفه.

دمعت عينا صفية في احتراق يكمن في القلب وظهر على مقلتيها فصبغتهما بلون الدم ثم نبست بصوتٍ واهن قائلة:

- بل أذنبنا يا بنيتي.. أخطأت أنا في حقها لم يكن جرمًا عاديًا تركناها وحدها ففقدتها وذهبت بعيدًا.. كم أتمنى أن أراها ولكن لا أستطيع أن أرى وجهها وهو يقطر ألمًا وعذابًا.. صورتها لا تفارق مخيلتي، لم نستطع أن نفكر سوى كيف نداري الفضيحة.

لم يستطع قلبها أن يتحمل كل ما به من ذكرى وإعياء فأجهشت بالبكاء كما لم تبكي من قبل وكأن طفلتها لا تزال روحها مرفرفة حولها بعد أن فارقت الحياة وجسدها لايزال ساخنًا تحت يديها ولا تزال تشعر بالبرودة تزحف على أطرافها، تصبح الحياة كالموت عندما تفقد قطعة منك تشعر كأن هناك شيئًا اعتصر قلبك جعله فتاتًا.. خواء، حاولت سوسن التخفيف عنها قائلة:

- صلاح سيخرج يا أمي لن تكوني وحدك بعد الآن، لقد طمأنني ضابط المباحث الذي قابلته وكل شيء سينتهي.. سندفن نيرة وسندفن معها كل شيء.

تنهدت الأم المكلومة تبعتها بشهقات كل أوجاع العالم مجتمعة قائلة:

- لا شيء يدفن يا بنيتي.. سأعيش بعدها كالأموات بلا قلبٍ وبلا روح.

صمتتا فلم يعد الكلام يجدي.

في حضرة الموت.. يذهب كل شيء، للموت جلال لا يعلمه أحد سوى من ذاقوه واكتووا بناره، تعيش في بعد آخر مع أجزاءك الموتى وتنتظر فقط أن يأتيك ملاكه ليأخذك راضيًا حيث مسواك الأخير.

***

(17)

في ليلة شتوية مباغتة لم تكن في موعدها في منتصف شهر أكتوبر.. يجلس عماد في مكتبه وأمامه يجلس صلاح.. يتحدث معه عماد بهدوء كالذي يسبق العاصفة.. كهذا اليوم الصيفي الأجواء الذي باغتتنا فيه تلك العاصفة الهوجاء نفاجأ بها وكأننا اعتدنا على أن ذاك الوقت من العام يكون صيفًا.. اعتدنا على الاختلال في كل شيء.. مثلما اختلت رؤية صلاح للأمر برمته.. اعتقاده الخاطئ هو من جعله يخفي الحقيقة خوفًا من القيل والقال وكأنما الناس يكفون عن الحديث.. ليتهم يعلمون أنهم يتحدثون في كل وقت وكل حين متخطين كل الحواجز والمسافات كَعَدَّاء يعدو المسافات الطويلة ليصل إلى اللا هدف.. هكذا هم الناس يحترقون دومًا داخل أفران الفضول الملتهبة ولا بأس من إضافة توابلهم السخيفة التي لا طعم لها متخيلين أنها ستضفي نكهة مختلفة على الحدث وياليتهم يعلمون أنهم لا يفعلون سوى أنهم يزيدون الطين بلة بهرائهم الذي لا ينتهي، نظرات الدهشة تملأ ناظريّ صلاح من الجملة التي ألقاها عماد عليه قائلًا:

- ابنة حلال سوسن.. أليس كذلك.

لا يزال ينظر صلاح لعماد بنظرة تملؤها الدهشة يلتقطها عماد كمن يلتقط كرة مضرب بين يديه قائلًا:

- لا تتعجب لقد أتنني منذ قليل.. يبدو أنها تحبك.

يجيبه صلاح والحيرة تملؤه.

- ما بها سوسن.. هل حدث شيء لأمي؟؟

- لا لا لم يحدث شيء لها.. بل نيرة هي مربط الفرس.

- نيرة!!

- نعم.. لِمَ لَم تخبرني الحقيقة من أول يوم لِمَ أصررت على ما أنت فيه.. أخبرني

قالها عماد وصوته يرتفع تدريجيًا بعدما قام من على مكتبه ليجلس قبالة صلاح.

- وما هي الحقيقة التي تريدني أن أخبرك بها.

- حقًا لا تعلم؟؟؟ الحقيقة التي أخبرتني بها سوسن

يجز صلاح على أسنانه ويكور يده ليضرب بها كفه الآخر قائلًا:

- سوسن؟!! وماذا أخبرتك؟

- الكثير مما يغير مجرى القضية.. منتظر منك أن تخبرني بباقي التفاصيل حتى تغادرنا ونلتهي من كل هذا.

خبأ صلاح وجهه بكلتا يديه ثم استند بظهره على المقعد ثم استطرد قائلًا:

- سأكمل ما بدأته سوسن سأخبرك عن كل شيء.

عقد عماد ذراعيه على صدره واستند بظهره على المقعد قائلًا:

- وأنا كلي آذان مصغية..

***

أختي نيرة كانت فتاة هادئة بطبعها.. تدرس في معهد للتمريض لم تكن لها صديقات كثيرات سوسن فقط صديقتها المقربة.. حركتها كانت محدودة بين المنزل والمعهد فقط.. ولكنها في فترة من الفترات تبدل حالها.. فقد أصبحت تتحدث بكلام متضارب وسريع لا نعلم ما تتحدث عنه وإن اقترب منها أحد تصرخ وتهذي بأن هناك من يحاول أن يقتلها وأنه يوجد من يراقبها ويترصدها في كل وقت وحين لدرجة أنها كانت تتحدث مع اللا شيء بصراخ دائم أن (اتركني وتوقف عن مراقبتي لن أخبر أحدًا عنك) هكذا كانت تهذي وكانت تتلوى أمامنا من الألم حتى أنها كانت تؤذي نفسها

في كثيرٍ من الأحيان بأن تصفق رأسها في الجدار وتغرس أظافرها في جسدها.. ازداد قلقنا عليها بشدة أنا وأمي لا نعلم ماذا دهاها ولا ما أصابها.. كانت دومًا تصرخ قائلة.. أبعدوهم عني لم أعد أحتمل عبثهم بي وبجسدي أوقفوا تلك الصور التي تنزل من السماء.

وعندما كنا نسألها عما ترى كانت لا تعيرنا اهتمامًا وتسكن وتهدأ وتتحدث بعقلانية شديدة بعدها بأن تخبرنا عمَّ تتحدثون!! لا شيء من هذا القبيل ولكن عيناها كانتا تشيان بكم الذعر الذي يتملكها من الداخل.. بعدما ساءت حالتها أكثر اهتدينا أن نذهب بها إلى شيخٍ لعلها تكون ملبوسة أو شيئًا من هذا ترددنا على الشيخ عدة مرات وبعدها أصبح يأتينا في المنزل لأنها كانت قد أحجمت عن الذهاب بعدما كانت تصرخ فينا قائلة " ليس بي مسًا بل هناك من يراقبني ويتوعدني دومًا ويريد قتلي ويقوم بتعذيبي " كانت تستجدينا دومًا بأن نكف عن ذلك فهذا يزيدها ألمًا ولا يفيد بشيء، ولكننا لم نكف وباليتنا كففنا عما فعلناه بها.. وصل بها الأمر أنها كانت تهابني وعندما تراني تختبئ وتصرخ وتبكي كأنني لست بأخيها.. بكيت من أجلها كثيرًا ولم أكن أعلم ما عليَّ فعله.. لقد هيئ لي أن ما أفعله صحيحًا فحتمًا هي ممسوسة بمسٍ ما.. كنت أحاول أن أساعدها فقط هذا ما كنت أعتقده لكن بعد ذلك لاحظت أن هذا الشيخ نظراته لها ليست مريحة كانت دومًا تشعل النيران بداخلي وإصراره الدائم أن يختلي بها حتى ولو لدقائق جعلني أشك في الأمر وبعد ذلك منعت تلك الجلسات ولم أعد أجعل ذاك الشيخ يتابع حالتها إلى أن جاءت تلك الليلة المشؤومة.

كانت في حالة انهيار تام ولم أكن في المنزل في هذا الوقت.. لم تعلم أمي ماذا تفعل فأخذتها هي وسوسن وذهبتا بها إلى الشيخ، وجلست قبالته نيرة.. نظر حوله باستياء وأمي وسوسن يحترقان لما هي فيه.. ثم وضع يده على رأسها وبدأ يتمتم ببضع كلمات ويصرخ وهي تضحك غير مبالية بما يفعل ولا بأي شيء، ثم نظر لهم قائلًا:

- أرجو أن تخلوا الغرفة لأني سأستحضر خدامي أخشى أن يؤذيكم أحدهم بينما أكون مهتمًا بالجن الذي يتلبس ابنتكم.

دار بينهم حديثًا وسألته أمي..

- إلى الآن لم تخبرنا ما بها لا يهمك سوى ما تأخذه منا أخبرني أولًا ما بها فأخبرها بعدما ظهرت علامات الامتعاض عليه قائلًا:

- إن الجن الذي يستحوذ عليها جن عاشق ومتمسك بها بشدة وقوى ويجب أن أكون وحدي معه لأني سأستحضره على جسدها وسيكون خدامي معي مثلما أخبرتكِ فرجاءًا أخلي الغرفة لأكون معها وحدي وابتعدا على قدر ما تستطيعان

خرجتا فلم يكن في أيديهم أي شيء تفعلانه سوى الانصياع لكلمات ذلك الدجال ونسيتا أنني حذرتهم من أن يفعلا ولكن هذا ما قد حدث.. كانت تصرخ بشدة صرخات اهتزت لها الجدران وما أن سكنت صرخاتها حتى وجدتا ذاك الرجل يخرج من الغرفة مهرولًا وعندما استوقفته أمي سائلة إياه ما قد حدث أجابها قائلًا: إنها بخير فقط أغشى عليها من كثرة الدخان والصراع الذي حدث لها مع ذاك الجني أوهنها وَهَمَّ خارجًا قائلًا: خذاها من هنا لأن عندي موعد فعليكم بالإسراع هي بخير الآن أعادها عدة مرات ولكن وجهه لم يكن يشي بذلك وهيئته أيضًا كانت على غير طبيعتها وجبينه يقطر منه العرق وعندما وجد أنهم في حيرة من أمرهم قال لهم أن المكان أمانة عندهم وخرج سريعًا وريثما ذهب دخلت أمي وسوسن عليها وجداها لا تتحرك لم يأتي ببالهم أي شيء وأسنداها على أكتافهم وعادوا بها.. ولكن في طريق عودتهم حاولت أمي أن تجعلها تستفيق ولكن وجدتها باردة كالثلج لم يلحظا الدماء التي كانت على ملابسها من ضيق المكان والإضاءة الخافتة والجو الخانق المليء بالأبخرة ولكن عندما عادتا تَكَشَّفَ أمامهم كل شيء.. واتضحت الصورة هاتفتني سوسن أن آتي سريعًا وعندما أتيت كان كل شيء قد انتهى شُلَّ عقلي عن التفكير كان أول شيء فعلته أن ذهبت إلى مكان هذا الدجال فوجدته خاويًا مثلما قالت لي أمي أنه ترك المكان قبلهما.. فلم أعلم ماذا أفعل انهار تفكيري وسوس لي شيطاني وأعانني جهلي أنني أفعل الصواب لأتفادى الفضيحة فحدث ما قد حدث.

***

داخل الغرفة

يقف الرجل أمام نيرة يتفحصها بعينيه ويكاد لعابه يسيل عليها، أمسك عصاه وبدأ في ضربها على قدميها بعدما قيد حركتها وبدأ يمارس طقوسه المشعوذة عليها في ضربها على فخذيها وأكتافها بعصاه الرفيعة التي ما أن يرفعها في الهواء ويهوي بها على جسدها حتى تحدث صفيرًا ترتعد له القلوب ظل يردد ((واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علمو لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم ولو كانو يعلمون)) (102) من سورة البقرة، ويصرخ قائلًا اخرج بحق الله اخرج بحق الله وإلا سأعيد عليك البرهماتية إن أكملتها لأربعون سوف تحترق أعادها كثيرًا ونيرة تبكي من الألم تارة وتارة أخرى تتأوه بصرخات ماجنة وتنظر إلى عينيه بحنق قائلة ليس بي شيء وما أنت إلا دجالٌ لعين، يستمر في ضربها وهي تتأوه وأحيانًا أخرى تخبره بأن يزيد في ضربها لعله يخفف عنها حدة ما يحاول قتلها من داخلها، أثارت في نفسه المريضة ثورتها فاستكمل ضربه لها حتى تزيده شهوة وما أن فقدت وعيها حتى أجهز عليها بجسده بوحشية استفاقت من إغمائتها على رائحة زيوته العطنة فأخذ يزداد عويلها أكثر فأكثر وما أن يزداد صراخها فيزداد هو في فعلته الشنعاء وما أن وجدها تزداد في صراخها الباكي ونداءها على أخيها وأمها حتى وضع يده على فمها كاتمًا صوتها صدرت عنها حشرجة خانقة لم يشعر بنفسه إلا وهو ممسكٌ برقبتها وكان في أوج اشتعاله وكأنه لا يريد أن يقطعه شيء عن فعلته القذرة ومع غيابه في شهوته الملعونة وجد يده قد غاصت في رقبتها إلى أن تركها جثة هامدة، لملم شتات نفسه وخرج مهرولًا وجبينه يتفصد عرقًا، حاول أن يكون طبيعيًا فأجابهم عما يريدون والتوتر يفتك به وما أن انتهى حتى خرج وترك كل شيء معبأ بالفوضى التي تقتلع الأرواح من مكامنها.

***

لم أكن أعلم ماذا افعل بعد تلك الفضيحة فعلقت حبلًا وربطته ولففته حول عنقها وجعلتها تتدلى منه إلى أن أخبرناكم بالحادث.. كنت خائف من كلام الناس حولي بعدما تبدلت حياة أختي خلال ثلاثة أشهر واثنى عشر يومًا.. مائة واثنان يوم نموت فيهم في كل ساعة ألف مرة، وكيف لنا أن نتعامل معهم بعد كل هذا الصراخ الذي سمعه الجيران فما كان عليَّ سوى أن أفعل ما فعلته لقد فقدت أختي عذريتها على يد هذا الرجل وأفقدها أيضًا حياتها بوحشيته وهمجيته وجهله.. وأنا الذي سلمتها له بكلتا يداي، وكل ذنبي أني كنت أريد أن تتحسن أختي ليس إلا هل أخطأت!!.. افعل بي ما تشاء فأنا المذنب الوحيد هنا بجهلي.. قالها وأجهش بالبكاء.. بكاء تعاطف معه عماد برغم ما سببه له ولكن إنه الجهل فإن كان هناك مذنبًا فليكن جهل هؤلاء. ترى الجهلاء فقط هم من يخطئون أم أنها معتقداتنا البالية..!!

***

obeikandl.com

(18)

يدخل مراد بعد أن ضاق صدره بإغلاق فريدة الغرفة على نفسها يومان وكلما دخل عليها ازداد صراخها ونحيبها الذي اقترب إلى العويل فيغلق باب الغرفة في صمت.. لم يكن يتملكه ذنبًا بل خوفًا من اهتزاز صورته عند جيرانه.

ولكنه الآن لم يعد يطيق صبرًا ففتح الباب بعنف فوجد جذعها يتدلى من النافذة ولاتزال ملابسها عليها بقعة دماء جنينها ولاتزال آثار اعتدائه السافر تشوه فراشهم، يهرع إليها يحملها ويسقطها أرضًا ويمطرها بوابل من السباب اللامتناهي، سقطت من بين يديه كأنه أزاح حملًا عن كاهله أما هي فقد سقطت بلا سقوط وكأنه لا يعنيها من رميته لها شيئًا اعتدلت فقط ولم تأبه إليه وقطرات الماء لا تزال تسقط من خصلات شعرها على جسدها تشعر ببرودتها على وجنتيها لتتابع الهطول مع دموعها على باقي جسدها حاولت أن تضم بقعة دماء جنينها إلى صدرها فأمسكت بطرف ملابسها وضمته مع قدميها وأسقطت رأسها على ركبتيها وظلت تنتحب في صمت، تركها وهرع خارجًا يسب ويلعن أيامه السوداء التي جمعته بتلك الفتاة الهشة.

***

قبل ذلك بيومان

مريومان على حالة فريدة بعد سقوط جنينها من رحمها كأنه لم يكن سوى بضع تكوينات دموية التصقت برحمها الضعيف فلم يجد له مكانًا فانشَقَّ عنه وسقط غير مبالٍ بالحياة ومن يحيون بها، استمر نزيفها ولم تكن لتبالي به.. رائحة الدماء تملأ الغرفة ولكنها لم تؤذِهَا فلم يكن يعنيها شيء سوى أن تكون معه.. ترهف السمع فتجد قطرات الأمطار تنقر على نافذتها الزجاجية فتتحرك بوهن إليها تجد الجو الغائم والسماء تمطر بقطرات ندية تضع يدها على الزجاج فتطبع يدها بخارًا بحجم كفها الصغيرة فيزداد هطول الأمطار فترتسم على ثغرها ابتسامة طفل بائس فتشرع في فتح النافذة وتميل بجذعها خارجها لعل الأمطار الطاهرة تغسلها وتنقيها من آثام مراد ووحشيته في انتهاك أحشائها.. أغمضت عينيها وتمنت لو يغتسل من دماء جنينها الذي قتله بهمجيته، ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد بل استمر على عنفه معها التي لا تعلم سببه حينما دخل عليها الغرفة ووجدها على تلك الوضعية ظنًا منه أنها كانت تُقدِمُ على إلقاء جسدها الضعيف منها.. لم يُلَوِّح لها الانتحار برايته بعد ولكن من يعلم.. ربما يلتفت لها يومًا ما.. لأول مرة لم تتمنى احتضانه لها ولا حتى أن يكفكف دمعها، زهدت تلك الضمة المميتة فلم تعد تراه إلا قاتلًا يداه ملوثتان بتلك الدماء التي كادت تئن بين يديه فأجهض بها كل أحلامها التي تمثلت في جنين لا حول له ولا قوة.

ظل يعزف الناي الحزين على إيقاع دقات قلبها المكلوم لم تعد تعلم كم من الأيام مر عليها، أثارت غيبتها قلق أقرب صديقاتها ظل هاتفها يصدح بنغماته لا يَكِلّ ولا يمل ولا مجيب له يريحه من الاهتزاز المزعج مع النغمات العالية.. لم يكن على علياء سوى أن تستعين بزوجها في الإتيان برقم مراد عندما تعارفا في حفل الزفاف.. لم تتردد وما أن تحصلت عليه حتى هاتفته بلا أي مقدمات سألت عن فريدة لم يتردد في أن يخبرها بحالتها برغم تحفظه محافظًا على سرية ما قد حدث.. فهو الزوج الحنون الذي لا يمكن أن يشوه غلاف كلماته بالهدوء قائلًا أنها فقدت جنينها واستنجد بها لتأتي إليها لتخرجها من حالتها تلك.

هرعت علياء إلى صديقتها.. صدمها ما شاهدت.. استأذنت مراد في أن يتركهما وحدهما ويترك المنزل لتحسن الاهتمام بفريدة مما هي فيه، تركهما على مضض وخرج وهو يدعو الله أن لا تخبرها فريدة بكل ما حدث حتى يظل محتفظًا بسمته أمام الآخرين، لعن غبائه عندما دعاها لتراها وهمس بالدعاء على فريدة بأن يا ليتها تحترق على أن يهتم لأمرها ويبعث بعلياء لتهتم بها.. ولكن ظل هناك ذاك السؤال يطارده " وماذا بعد!! "؟

أخذتها علياء بين ذراعيها وهي مستكينه تكمل انتحابها بأزيز يرتجف له البدن.. أمسكت بكتفيها قائلة:

- ما بكِ لم أعهدك هكذا.. هذا قضاء الله وقدره.

لم ترد عليها ظلت على حالتها تؤثر الصمت على الإفصاح بمكنونها، استكملت علياء ما بدأت

- فلتنهضي معي سأنظف كل هذه الفوضى وتغتسلي مما أنتِ فيه

نظرت لها برعب شديد عيناها تتنقل بين بقع الدماء القانية على الفراش وملابسها وقدميها التي أصبحت مزيجًا بين لون بشرتها والدماء التي تنهال منها أخذت تضمهما بكامل قوتها الهاربة منها بعدما أنهكها النزيف المتواصل، أزاحتها علياء وأمسكت بها من جديد.. ناهية إياها أن لا تفعل هذا وما ذهب سيعوض ولكن يجب أن نرضى بأمر الله.. تقبلت كلماتها على غير يقين بذلك ولكن لم يكن في طاقتها المزيد من الجدال أو حتى الحديث، أجلستها علياء على مقعد مقابل للفراش ذهلها الشحوب الذي كسا وجهها والسواد الذي اتخذ سبيله إلى عينيها فتركت ما كانت تفعل واحتضنتها بين ذراعيها من جديد لم تهتم بأن تلطخها دماءها فلم يكن على فريدة سوى أن تفقد وعيها وتستكين في صدر علياء مما أصابها بالهلع ظنت أنها أصبحت جثة هامدة ولكن ليس بعد تحسست أنفاسها وجدتها بطيئة متقطعة أراحتها على الكرسي وذهبت لتفيقها من غيابها القصري فتحت فريدة عينها بخفوت، حمدت صديقتها الله وشرعت في تنظيف آثار الدماء التي على جسدها

وبدلت لها ملابسها كطفل لا يقوى على ذلك وأخذت تنظف الفراش وعينا فريدة متعلقة بكل حركة تفعلها علياء وما أن وجدتها تضع مفرش الفراش في سلة الغسيل حتى صرخت في خُفُوت بها أن لا تضعها ستحتفظ بها تشبثت بها بأصابعها الواهنة وفي نظرتها استجداء أشفقت عليها فتركته لها وأكملت ما كانت تفعل ومئات علامات الاستفهام ترتسم داخل عقلها لم يكن أمامها سوى أن تؤجل تلك الاستفهامات حتى تعود لمنزلها وتطرح كل ما حدث ورأته على زوجها.

***

لم يهدأ مراد وهو بالخارج ظل يمطر علياء بالاتصالات لعله يستشف من صوتها هل أخبرتها فريدة بما حدث أم أمسكت عليها لسانها وفي كل مرة لا ترد فيها علياء على هاتفها لانشغالها بما تفعل يحترق هو في إناء يملؤه الخوف، لا يعلم أين يذهب ولا حتى كيف يجلس في أي مكان فالمحترقون يظلون يتمرغون باحتراقهم حتى يتآكل جسدهم وتموت فيهم أي ذرة إحساس بالألم.. ترك نفسه فريسة لاحتراقه وقادته قدماه الى اللامكان ظل يسير بلا هدف حتى جاءه اتصال علياء تعتذر عن عدم الرد وتشكره على اهتمامه البالغ في أنه يريد الاطمئنان على زوجته.. لم يبالي بهرائها فكل ما يهمه قد علمه.. حمد الله أن فريدة لم تفصح.

ولكنها لم تفصح على غير إرادة منها ربما لأن اسمه أصبح سُمًّا تضعه على لسانها عندما تنطق به لا تعلم ولكن أصبح يثير غثيانها ورعبها في كل مرة تراه.. أغلقت علياء الخط داعية إياه أن يأتي قبل أن تغادر المنزل فهرع على الفور إلى أقرب تاكسي وجده في طريقه بعدما ترك سيارته مستكينة تحت المنزل.. ولكن فريدة لم تهدأ فور رؤيتها له قفزت من مكانها وظلت تصرخ وتهذي وتشير إليه بسبابتها، وقفت علياء بينهما في حالة اضطراب لا تعلم ما الذي يدور حاول أن يحتوي الموقف فجرى عليها ليضمها بين ذراعيه مهدئًا إياها، تلك الضمة المصطنعة التي كرهتها فريدة بعدما كانت تتمناها مشيرًا إلى علياء أن تذهب وتتركهما لم تُرِد أن تتركهما ولكن في غمرة الصراخ تذهب الكلمات ويتشتت العقل ونمتثل لجلال العويل فنصمت ونترك دموعنا تهطل إجلالًا للحزن القادم من بعيد يقرع أبوابنا في صخب.

ذهبت علياء بعدما شددت على مراد أن حالتها تحتاج إلى طبيب فالنزيف لا يتوقف كان لسانه يلهج بالموافقة ولكن عيناه كانت تشي بغير ذلك تركتها وقد ساورها الشك أن ربما مراد هو السبب في كل ما صديقتها فيه لامت نفسها كثيرًا أنها لم تنصت لِكَمّ الوجع الذي كان يئن في عيني فريدة التي كانت تحلم بحياة غير الحياة وأنها ربما كانت محقة فيما تقوله فريدة وأنه ليس مجرد وهم مثل كل شيء مضى، اختلطت كل المفاهيم لديها حالتها لا تنبئ بخير واختلط عليها الوهم بالحقيقة فربما أصبح الوهم حقيقة.. من يعلم!!.

***

obeikandl.com

(19)

الصراعات التي كادت تُميت نيرة من داخلها لم يكن ليتحملها بشر.. شعورها بالضعف والحاجة.. كانت سياط روحها تجلدها في كل يوم وليلة لم تكن تعلم ما بها أو ماذا يحدث لها، ماذا أَلَمَّ بروحها الممزقة.. علامات استفهام وتعجب لما آلت إليه.

كان كل شيء هادئ أو لعله هدوء البحر في ظاهره ولكنه يحمل بداخله الكثير من الموجات المتباينة الأحجام والأشكال.. ولكن ظل إحساس أن هناك شيئًا ليس بطبيعي يُلِمُّ بها، جمالها المتواضع الذي لم تشعر به وتأكيدات أمها بأنها يجب أن تحافظ على نفسها حتى يرضى بها ابن الحلال الذي لن يجد عندها إلا شرفها التي يجب أن تقاتل من أجله.. مراقبة أخيها لها وتشدده عليها في كل شيء حتى وإن كان الظاهر شدة والباطن حب ولكنه آلمها، كم شعرت بالدونية والقهر لذوبانها في تلك البقعة الفقيرة المؤلمة.

لم تكن لتستطع أن تمنع قلبها من الخفقان والارتعاش لرؤيته إنه شادي الرحيمي دكتور في المصحة النفسية التي كانت تتدرب فيها في دراستها التمريضية.. لم يكن ليلقي لها بالًا لولا حاسته كطبيب نفسي في نظرتها المشبعة بالقلق ومقلتيها الزائغتين في الفراغ وكأنها تهاب شيئًا.. لم تصغي إليه وهو يشرح بعض الحالات النفسية التي يتدربون عليها.. أو ينتبه لها منكمشة على ذاتها وكأنها محاصرة بجيوش العالم وهي في بؤرتهم النارية، وقف بجانبها وهي تنظر إليه ولا تراه يقترب منها لما كانت فيه قائلًا لها:

- آنسه نيرة أليس كذلك؟!

نظرت له نظرة هائمة وكأنه جاءها من العدم وفجأه ظهر لها من الفراغ

- نعم أنا هي.

ابتسم لها ثم استطرد

- أراكِ غير منتبهة للمحاضرة فهل يوجد هناك شيء يضايقك؟

- لا فقط لا أشعر بارتياح

- ممن.. هلا أخبرتني؟

- من الجميع.. ينظرون لي نظرات مؤلمة ويتحدثون عني يعتقدون أنني غير طبيعية

- ولماذا؟!

- لا أعلم..

نكست وجهها في موضع قدميها ولم تستطع أن تكمل الحديث تركته غير مبالية به أو بما سيقول.. وكأنه تبخر من أمامها فلم تعد تراه، مأمورة بالذهاب ويكاد الألم يقطع أحشاءها ومناجل من نار تمزق أوردتها لم تُطِل المشي طويلًا.. وقفت بجانب جدار واستندت إليه وجلست محتضنة قدميها تطبق على أذنيها بكلتا كفيها وأخذت تبكي بضعف ووهن من وُضِعَ في الأسر ولا مخرج له سوى أنين مكتوم.

***

أغلق ملف قضية نيرة بلا رجعة، وَدَّعتُها وأنا قلبي يكاد يخرج من مكانه لفراقها.. أشفقت عليها من كل ما تعرضت له أصررت على أن أرى ذاك المجرم الذي أجهز عليها بروح حيوانية تملكتها الغريزة لم أشعر بنفسي إلا وأنا أبصق في وجهه غير مبالٍ بأي شيء لا أعلم لماذا تأثرت بكل ما حدث وبرغم أننا في الألفية الثالثة إلا أننا نعاني من ويلات الجهل.

لم تكن نيرة بها مَسّ من الجن بل نحن من أصابنا المس بجنٍّ خارقٍ للعادة يطلق عليه الغياب الفعلي للعقل عندما تحتلنا الخرافة لو كانت لاقت علاجًا لَمَّا كانت

ملفوفة بدثار بلا أكمام يلفها وهي مشرحة من كل جانب منتهكة آدميتها لمجرد ألم ألمّ بها لا نعلم كنهه.

أفرج عن صلاح وعاد تهاجمه عيون من غيبت عقولهم، يحتضن أمه بداخل صدره ويجهش بالبكاء بعدما كاد أن يرتكب جريمة أخرى عندما تم عرض المجرم عليه كاد يفتك به ويمزقه لولا عماد الذي أحال بينهما، فلم تكن رحلة البحث عنه هينة على الإطلاق ولكن الجريمة الكاملة تحتاج إلى عقل إنساني وليس جسد حيوان بعقل متعفن يصدر نهيقًا لا يمت للإنسانية بصلة.

أغلقت القضية ولكن لم تنتهي نيرة بعد من سرد قصتها لي.. لم تفارقني قط وكأنها تريد أن تحيطني علمًا بكل ما كانت فيه.. ورغم أنها كانت حريصة في إرسال إشاراتها لي إلا أنها آثرت أن تظل روحها ترفرف حولي في كل وقت وفي كل حين وكأنها أشفقت على قلبي من بعد جسدها الذي كان مسجى أمامي على منضدة المشرحة ولم تفارقني حتى وهي داخل ثلاجتها الفضية.. ترى هل ترتبط الأرواح بالأحياء لا أعلم سوى أنني مريض بهم تلك الجثث التي لا تفارقني أرواحها ولكن كانت تلك هي المرة الأولى التي لا تفارقني روح بدفن جسدها.. قَصَّت عليَّ القصة كاملة بروح مرتعشة فارقت جسد وعقل أنهكه المرض، دفعتني دفعًا لأذهب إلى المصحة النفسية التي يعمل بها الدكتور شادي الرحيمي.. أطلعني على الكثير مما يخص حالتها.. صدمت في بادئ الأمر ولكن ماذا تفيد الصدمة فيوجد مثلها الكثير في مجتمعاتنا العربية ممن لا يلقون لهم بالًا وكأنهم غثاء لا أهمية له ويموتون وهم يرفعون راية هل من مجيب.. هل هناك من يسمع ما بدواخلنا من ألم.

ولكنه هراء، لا عين ترى ولا أذن تسمع وقلوب قُدَّت من حجر، جاءني هاتفها وأنا أنظر إلى صفحة النيل وأراه وكأنه لا نهاية ولا بداية له، أسير معه ببصري وأعلم أنه سيلقي بي في مياه البحر الواسع الذي يحيط بكل الأرض ككتلة مياة واحدة مختلفة الأسماء ذهبت معه بعيدًا حتى وجدتها تحدثني.. استمعت لها في خشوع.. انفصلتُ عن كل عوالمي وكأن كل شيء توقف من حولي ولم يعد هناك سوى صوتها الذي

يدب في عقلي بخطوات هادئة رصينة تردد تاريخًا 6\6\2016، ثم ذكرت اسم فريدة، ثم مصحة نفسية، ثم شادي الرحيمي، شياطين

وجدت الكلمات تتطاير في عقلي لا أعلم ماهيتها ولا كيف أمسك بها.. قتلني الفضول بعدما أدار رأسي وشطرها نصفين نصف مع ذاك الاسم الذي ذكرته والتاريخ ونصف مع اسم المصحة النفسية التي ذَكَرَتهُ لي وشادي الرحيمي ووقفت أمام كلمة الشياطين ووضعت أمامها عدد لا نهائي من علامات التعجب والاستفهام، ومن هنا بدأتُ في رحلة بحثي عن الشطر الأول.

أعمتني كلماتها المتطايرة.. جعلتني أعيش في عالمها هي فقط ولكن لم أكن على علم بما الرابط بين كل تلك الكلمات فبدأت من حيث الطرف الواضح نسبيًا.

ذهبت إلى المصحة النفسية ووجدتني أسأل عن شادي الرحيمي بدون ألقاب فلم أكن أعلم وضعه ولا من يكون بروح تلهث وملامح جامدة سألت:

- أريد شادي الرحيمي

نظر لي موظف الاستقبال نظرة بلهاء ثم أعاد نظره مرة أخرى فيما أمامه متجاهلًا أن ينظر لي وكأنه أسلوب مُتَّبَع في موظفين الاستقبال اللامبالاة عنوان لهم.. صمت برهة ثم قال:

- من أنت لأخبر الدكتور شادي عنك؟

أخرجت له هويتي وكارنيه مهنتي كطبيب شرعي في فتور بدون أن أنبس ببنت شفة، نظر لهم مليًا وتفحص وجهي ثم أعادهم لي ورفع سماعة الهاتف الداخلي مناديًا على الدكتور شادي الرحيمي.. جاء بعد عشر دقائق يرتدي بالطو أبيض ونظارة طبية، شعره يكاد يزحف معلنًا عن بداية صَلَع مع لحية خفيفة وحاجبان كَثَّان تختفي تحتهما عينان ضيقتان، واضعًا يداه داخل البالطو يتهادى وكأنه يقطر منه الهدوء أو البرود لا أعلم لماذا ظننته كذلك ربما هيئته أعطتني هذا الانطباع، أو ربما لُهَاثُ روحي لم يتحمل هدوءه لا أعلم حقًا.. اقترب مني ومد يده تجاهي قائلً:ا

- شادي الرحيمي.. بماذا أخدمك؟

لم أنبس بمقدمات فقط نطقتها فجأة

- نيرة

- عفوًا لا أفهم.. قالها متعجبًا

- أريد أن أعلم منك قصة نيرة.. كانت طالبة في معهد التمريض.. لا أعلم إذا كنت ستصدقني أم لا ولكنها ماتت مقتولة وكنت أنا الطبيب الشرعي المكلف بها

- لا أفهمك.. كيف علمت عني طالما تقول أنها ماتت.

- لن تصدقني لو أخبرتك بكل ما أنا فيه ولكن سأخبرك.. لقد هَدَتْنِي روحها إليك.

خرجت ضحكة من بين شفتيه وكأن لسان حاله يقول.. أنا مُحَاط بالمرضى النفسيين وأعتقد أنك منهم.. قرأتها في عينيه ورددت عليه من فوري

- أنا لست بمريض نفسي أو مجنون ولو كنت كذلك.. سؤالك يوحي أنك تعرفها.. إذن ما أنا فيه ليس جنون بل حقيقة أعيش بها ومعها.

صمت شادي قليلًا قبل أن يجيب ثم نظر إليَّ قائلًا:

- حسنًا تعال لنجلس قليلًا.. يبدو عليك التعب.

مشيت معه، قدرت إحساسه بي فبالفعل روحي تكاد تخرج من مكانها من كثرة لهاثها الذي يكاد يقتلعها من إخمص أقدامي حتى باتت مغادرتها وشيكة، جلسنا سويًا في الحديقة الجرداء التي يسمونها حديقة رغم أنها أقرب للمقابر أرض صلعاء من حشائشها ومقاعد معدمة وَخَرِبَة ولا يوجد أثر لزهرة واحدة.. وكأنها أرض الموت، جلست وبداخلي إشفاق على من يقبعون في هذا المكان الذي يطلق عليه مستشفى للتأهيل النفسي.. الأصح أن يكون مستشفى للتأهيل للموت.. لم أستفق من تحليلاتي إلا على صوته قائلًا:

- نيرة كانت طالبة ممن يأتون من المعهد للتدرب على الحالات النفسية.. ولكنها كانت بالفعل مريضة.. حاولت أن أساعدها ولكن في المرة التي قررت مساعدتها لم تأتي المرة المقبلة.. وها أنت تخبرني أنها قُتِلَت فَهَلَّا أخبرتني قصتها.

أُصِبْتُ بخيبة أمل تعتصرني ولكن كان هناك بصيصٌ من الفضول يجعلني أريد أن أعلم بماذا كانت مريضة أو كيف كانت تصرفاتها التي جعلته يقول هذا فحتمًا هي تريدني أن أعلم شيئًا عنها منه وليس لكي يعلم أنها ماتت أم تراها كانت تحبه وجرحها يومًا ما.. ما كل هذا!!.. قصصت عليه القصة كاملة حتى اجتاحه الحزن ووجد نفسه محاطًا به من كل جانب ثم أخذ نفسًا عميقًا وقرر أن يحكي كل ما فات لا أعلم هدفه هل يريد مساعدتي أم أن الغضب الذي بداخله أجهز على قدرة احتماله وقرر أن ينفجر بلا أي مقدمات.. رأيت كل شيء في عينيه يحاول أن يصرخ ولكنه هَبَّ واقفًا فجأة واستأذن مني أن أنتظره ريثما يأتي بحاجياته ونخرج من هذا المكان الذي كاد يطبق على أنفاسه.. وافقت وتركته وريثما جاءني من جديد انطلقنا لنفتح ذلك الصندوق الأسود الذي يهابه الجميع.

* * *

obeikandl.com

(20)

الطريق طويل ولا نهاية له كأنه يمتد تحت قدميها بلا نهاية أم ترى خطواتها لا تتجاوز شبرًا في مكانها، شعرت وكأن المسير يتوقف بها لا تدري كيف تكمله ولا كيف سينتهي درات الظنون برأسها آلاف الدورات فَتَّتَ عقلها فلم تعد تستطيع أن تفكر في شيء، صورة باهتة لفريدة في رأسها تتمزق رويدًا رويدًا، تحولت عيناها لجدول ماء منهمر ويكاد قلبها ينخلع من مكانه وآهةٍ تخرج من قاع الجحيم صرخت بها روحها على صديقتها وتوأم روحها، توقفت ولا تعلم هل كانت تمشي أم أن الشلل قد أصاب قدميها.. أشارت إلى سيارة لتقلها إلى منزلها.. فكم كانت تحتاج أن تختفي بداخل أحضان زوجها لعله يهدئ من ألمها الذي كاد ينخر في روحها.

كان الجو غائمًا.. ينبئ بهطول أمطار عاتية توقفت قليلًا أمام بنايتها تنظر إلى السماء وكأنها تريدها أن تهطل بأمطارها عليها ولكن لم تستجب ولفحتها برودة الجو القارصة فجعلتها ترتعد وهرعت هاربة عبر سلالم البناية تلهث وتركض إلى أن وصلت إلى باب شقتها، باتت تبحث عن المفتاح لتولجه في الباب لم تجده أم تراها لم تاخذه أم تاه منها مثلما تاهت منها صديقتها لا تعلم شيئًا.. أخذت تقرع الباب بكلتا يديها وتبكي بكاءًا متواصلًا فتح أحمد الباب وجدها على تلك الحالة وما أن رأته حتى ارتمت بين ذراعيه ترتجف.. أخذ يهدئ من روعها وَدَثَّرَهَا بذراعيه حتى تهدأ، أغمضت عينيها تحتضن الدموع داخل مقلتيها حتى بللت صدره وهي تسحب الحياة لروحها من أنفاسه الهادئة.

***

ظلت فريدة تصرخ وهي بين يدي مراد حتى كادت روحها تقتلع منها.. ولم تصمت إلا بصفعة قوية على وجهها طرحتها أرضًا تكومت على روحها وجلست تبكي في صمت متحاشية النظر إليه.. اقترب منها وجلس أمامها ممسكًا بيديها التي كانت تريد أن تقطعهما لإمساكه بهما.. لم تكن بوعي كامل.. فقط شعرت وكأن النيران تلفحها من كل جانب.. وما أن رأى انتفاضتها الموجعة حتى تركها وعدل من جلسته بجانبها وأسند رأسه على الحائط يبكي في صمت ثم همس بها في خفوت..

- كم أكره ضعفك.. كُلُكُنَّ ضعفاء.. إنتِ مثل سارة.. ضعفك جعلكِ تكونين مِلكي مثلما ضعفها جعلها مِلكٌ لعماد، كل شيء بكِ يذكرني بها لقد آلمتني عندما استبدلتني بذاك الضابط المتحاذق.. كم أمقتهما سويًا.. أما أنتِ فقد اختلط الحب والكره سويًا في بوتقة واحدة.. أنا لا أريد أن أؤذيكي ولكن نظراتك المرتابة تدفعني للجنون.

صمت حتى كاد الصمت أن يكون قاتلا.. كان كالسياط التي تجعل منهما أشلاء.. كان يريدها ان تهمس بأي كلمه ولكنها لم تفعل كانت محدقة في الفراغ بعيون واهنه ووجه جامد حفرت الدموع وديانها في وجهها الصغير، لم ينتظرها أكثر من ذلك تركها يجر قدميه كأسيرتوه خرج من الأسر بروح يدميها الألم، جلس على الاريكة ثم أمسك بهاتفه ليطلب سيارة إسعاف تأخذها ليتوقف نزيفها الذي كاد أن يرديها قتيله.. لم يكن يريد فقدانها أو ربما كان يرد لا يعلم ما كل هذا الذي يتملكه سوى انه منهك.. روحه تحاول الصمود ولكن من يعلم هل سينجح ام لا.

***

إنتقلت فريدة إلى المستشفى.. لينقل لها أكياس من الدماء التي قررت أن تترك جسدها طواعية بعدما ضاق رحمها بها، لم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل أيضًا كانت مصابة بصدمة عصبية واكتئاب حاد أدى إلى اضطراب ما بعد الصدمة جلست تتلقى العلاج أسبوعان.. يتردد عليها مراد أما أمها وأبيها لم يروها سوى مرتان

تقريبًا وكأنها ذاك الجبل الذي لا يستحق الاهتمام.. لم يعيروها يومًا اهتمامًا وكانو على ثقة أنها ستخرج من تلك الأزمة طالما مراد بجانبها.. إنه درب من الجنون لم يكن يومًا زوجًا ليتم استبداله بحنان فطري غريزي يصدر من كيان كانت هي جزءًا منه.

أما علياء فقد ذاب قلبها من أجلها ذوبانًا..

قَصَّت كل ما حدث على زوجها صَدَّقَتهُ عندما أخبرهم الطبيب المعالج في المستشفى أنها تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة التي تعرضت لها عندما فقدت جنينها.. جعل علياء تحتضن رحمها بيديها عليه تخاف أن تفقده.. حاول أحمد كثيرًا أن لا تسقط ما حدث لفريدة عليها فهو حقًا يحبها، وأن ما حدث لفريدة كان لأسباب طبية بحتة!!.

عادت بعدما انقضت فترة العلاج واختلطت دماؤها بدماءٍ غريبةٍ لم تألفها ولم تتجانس معها ولكنها كانت مجبرة على تقبلها بكل ما فيها من اضطراب فلم يكن هناك وقتًا لاختيار الدماء التي ستتخلها ولم تكن لتعلم أنها لمراد.. فقط شعرت بأن دماءها تفور ولا تعلم ما السبب.

عادت ولم تعد، كل شيء قد تبدل كما يتبدل الطقس في جزء من الثانية من الحرارة للبرودة القارصة، لا شيء يدوم.

لم تكن حياتها رائعة لتتمنى أن تدوم.. كانت تمشي بتوجس من كل شيء حولها تنظر لمن حولها نظرات مختلطة.. وأحيانًا تهرب بناظريها عنهم سحبها مراد من يدها لتستقبل قدمها درجات الدرج المنهكة من كثرة صفق الأقدام عليها.. وقف طويلًا أمام باب منزلها تتأمل جنباته شعرت به لبعض الشيء أنه يتراقص أمامها كرقصة التانجو، كان مراد يحاول أن لا يخترقه الغضب لما يعلم من تعليمات الطبيب فتقدمها بخطوتين وهو ما زال ممسكًا بيديها ليستمر بسحبها بداخل قبرها الأبدي.. نظرت له نظرة هلع وكممت أنفاسها بكلتا يديها بعدما سحبت يدها منه هرعت إلى غرفتها، ظل مراد ساكنًا في مكانه وكأنه الآن بدأ يشعر.. وهل تشعر المناشير بالأخشاب

حين تتقطع وتنثر فتاتًا يعمي الأعين ويزكم الأنوف!!

حاول أن يهدئ من روحه التي تكاد أن تنفلت من لجامها.. ذهب إليها وجلس بجانبها على حافة الفراش قائلًا:

- فريدة.. لا أريدكِ أن تفزعي بعد الآن

لم تنظر له بل ظلت على وضعيتها محتضنة قدميها وتهتز اهتزازًا متزنًا وكأنها بندول رائق يتحرك على تَكَّات عقرب لساعة كل مهمتها تمضية الوقت، أعاد نداءه لها.

- فريدة هل تسمعينني..!! سنعيش سويًا وسنعوض ما تم إجهاضه.

في تلك اللحظة نظرت له نظرة متفحصة ثم التفتت له قائلة بصوت واهن مشتت:

- الإجهاض.. العديد من الناس أجهضو واستمرت حياتهم، وهناك من النساء من يجهضن أجنتهم بأنفسهن، ومنهن من يذهبون إلى الأطباء.. بالطبع لا يكون ذلك بشكل قانوني فالدولة تجرم الإجهاض عن عمد كما أن هناك العديدات من يفقدن حياتهم وهن يجهضن ويموتون ولا يحزن أحد عليهن.. ربما هن ساقطات والشرف لا يمثل شيئًا لهؤلاء ولكن جرائم الشرف منتشرة على الأغلب في الصعيد ونسبة تلك الجرائم تعد بسيطة بالنسبة للجرائم التي بالخارج, في الغرب لا يعتبرون الإجهاض جريمة ولكن من حق المرأة أن تتخلص منه، كما أن هناك من الغير متزوجات يأملن في طفل فيذهبون إلى بنك الأجنة ويجرون عملية طفل أنابيب وتحمل من رجل ربما قد يكون ميتًا.. الأموات أيضًا ينجبون.. نعم أحببت الفكرة كثيرًا أن يخزن ذاك السائل لتنجب حبيبته منه بعد موته وقتما أرادت إنه الحب الحب يفعل كل شيء في تلك الحياة يميت ويحي وينجب حتى الجثث تجهض مثلما أُجهضت.. أنا جثة هل تعلم ذلك منذ زمن بعيد.

اتسعت عيني مراد في دهشة مما قالته له فريدة لا يعلم بماذا يرد عليها أو ما الذي قالته للتو ولكنها ربثما انتهت حتى عادت تنظر إلى أصابع قدميها وهي تهتز كبندول تاه

عن مساره الذي يجب أن يتخذه، انتفض من جانبها وذهب إلى الغرفة المجاورة لا يعلم ماذا يفعل وما أن دار عدة دورات حول نفسه.. حتى عاد إليها مجددًا وبين يديه قنينة ماء وأخرج أدويتها من الحقيبة وأعطاها الحبوب لتلقمها ببضع رشفات لا طعم لها ما أن أخذتها حتى تكومت روحها وأسلمت عيناها لأسرها وهي تتخبط بين جنبات جسدها بلا هوادة.

لا نعلم قيمة الأشياء إلا بعد فوات أوانها.. حتى للندم شغف يميته إن لم يأتي في موعده المخصص له، يصرعه جبروت مكابر بنظرة متعالية موهمًا إياه أن بدوني لا تستطيع أن تكمل تلك الحياة إن كنت حَملًا يهوى الخنوع.

النادمين على أخطاءهم وذنوبهم ليسوا حملانًا.. ولكنهم أناس يحملون بداخلهم قلوبًا تنبض بالحياة وبماذا يفيد الجبروت عندما يفقدنا من نحب، إنه الوهم الذي يخرج من رحم فاسد يحمل فقط أفكاره الشيطانية القاتلة، حتى الشيطان تحدى إلهه وهو على يقين أنه خاسر ولكنه قبل التحدي بكبره وعناده.. الجبروت شيطان أحمق وهكذا كان مراد.

***

لم تتحمل علياء أن تترك فريدة وجدت قدمها تقودها إلى منزلها بطنها المنتفخة بعض الشيء بطفلها المرتقب، ضغطت على جرس الباب تتمنى أن تفتح لها بوجهها الذي غابت شمسه المشرقة عنه أو لم تطئه يومًا إلا في تلك اللحظات الحالمة بحياة وردية لم تراها قط.. أفاقت من تمنياتها على صوت مراد مرحبًا بها ولكن قسمات وجهه كانت محتقنة، سألت عن فريدة ولكنه أخبرها أنها نائمة بعدما أعطاها علاجها.. دعاها للدخول فدخلت تريح قدميها من حملٍ ارتكز عليهما.. لاحظت ما كان عليه رغم تنكيسه لرأسه بين قدميه بادرته قائلة:

- لماذا فعلت ذلك؟؟

أجابها بشرود:

- لم أفعل شيئًا.. هي من كانت تثير جنوني بغرابتها
- كان عليك أن تتحملها.. ألا تدرك ما فعلته بتلك المسكينة

زاد شروده وأجاب بآلية:

- لم أكن أعلم ولكن اليوم علمت
- علمت ماذا؟!!
- أن كل شيء قد انتهى

نظرت له ذاهلة ثم همستها فزعة

- هل ستطلقها!؟

ضحك ضحكة هازئة ثم قال

- بل هي من طلقتها روحها.
- !!!!!!!!!!!!!!!!!!

***

obeikandl.com

(21)

كرات من النيران قذفها د. شادي عليّ.. لم أكن أعلم ماذا أفعل عندما أخبرني بكل ما كانت به نيرة، جعلني ألعن الجهل وكل ما نحن به من معتقدات بالية تقتل منا الآلاف كل يوم وليلة فقط لمستنقع يمتلئ بالقاذورات يطلق عليه الشعوذة.

ذهبت مع شادي في طريق لا يعلم كلانا معالمه.. ولكن أخذنا المسير إلى النيل، ذاك الصرح الذي ريثما تنظر إليه تشعر بكَمّ من الأحاسيس المختلطة هل يحمل بداخله نقاءًا أم انعكاس الضياء عليه يجعله هكذا أحيانًا نراه صافيًا وأحيانًا نراه ملونًا بلون الطين الراقد أسفله.. أوربما انطبع عليه ألم من يشربون منه في خارجهم نقاء وبداخلهم العديد من الاختلافات المقيتة.

جلسنا ولم ينظر أحدٌ مِنَّا إلى الآخر ولكنه بدأ بحديث غير مترابط في بادئ الأمر كان يلوم نفسه كثيرًا.. لدرجة أنه شعر بالذنب تجاهها ثم التفت إليّ فجأة قائلًا:

- أنا السبب أليس كذلك.
- السبب في ماذا؟!!
- لو كنت فقط اهتممت بالأمر لما انتهت حياتها.

لم أكن لأدري كيف أرد عليه سوى بسؤال قتلني

- ماذا كان بها.. نطقتُ بها ونياط قلبي تكاد تتقطع من فرط الإشفاق الذي ألمَّ بي تجاهها..وبكل الحنق تجاه ما نحن فيه
- في بادئ الأمر لم أكن أعلم ما بها ولكن حالتها كانت غير طبيعية نظرات

عينيها وعدائيتها تجاه زميلاتها، انفعالها غير المبرر.. إلى أن صادفتني عدة أحداث جعلتني أوقن أن بها شيئًا...

قاطعته وكأن القطع ورائي بكل شيء حتى في أحبالي الصوتية أحمل مشرطًا لا يهدأ

- مسًا شيطانيًا!!

نظر لي نظرة متعجبة رافعًا كلتا حاجبيه ثم استطرد

- هل تعتقد في تلك الأشياء؟؟

- ولِمَ لا، مذكورة في القرآن

- لا ريب في ذلك.. ولكن أنا أحكم من مكاني كطبيب ولست معالج روحانيّ.

- حسنًا وما حكمك كطبيب.

لم يجِبني وكأنني نقلته إلى مكانٍ آخر يجتر منه ما كان يحدث وحدث.. فاسترسل في الحديث ولم أقطع حديثه بمشرطي الحاد بل نَحَّيتُهُ جانبًا وتركت الكلمات تنهمر منه كالدماء الجارية من شريان تم قطعه للتو.

نيرة كانت طالبه عادية.. لم أر منها شيئًا مريبًا من أول العام الدراسي وبداية تدربها على التمريض النفسي.. ولكنها كانت تحمل بداخلها الكثير لم أعزي ذلك لأي شيء أو بالأحرى لم أهتم.. لكنها كانت في بادئ الأمر مهتمة بالمرضى بشكل بالغ تحضر الجلسات وتهتم بالشرح.. كانت تُشِعُّ ذكاءًا.. أحيانًا كنت أشعر أنها كانت تستحق مكانة أفضل مما هي عليها كان يبهرني اهتمامها.. مع بصيص من شيء بها لا أعلم كنهه فلم أتحدث معها بشكل خاص من قبل هكذا عادتي مع طلابي، إلى أن ذبلت ولا أعلم ما سر ذبولها المفاجئ ربما قد تطورت حالتها التي لم تلقى اهتمامًا.

توالت الأحداث.. أصبحت كثيرة الشرود والإنصات، لم يكن لي أو لأحد بجانبها، بدت وكأنها تستمع إلى شيءٍ آخر أحيانًا تتجهم وأحيانًا أخرى تنصت في خشوع، ولكن أذهلتنا جميعًا عندما وجدناها تخرج من غرفة أحد المرضى هلعة تركض بلا توقف.. لم يستطع أحد منا أن يوقفها، سألت إذا كان هناك أحد بالغرفة معها غير

المريض لم يفِدني أحد.. كما أن المريض كان في حالة من السكون والهدوء التام لم تكن حالته مؤذية على أية حال.. لم أُعِر الموقف اهتمامًا سوى دقائق حدوثه وبعدها انمسح من ذاكرتي فور عجزي عن تحليله، لذلك عند رؤيتها في المرة التالية كانت بعد ذلك الموقف أعتقد بيومين.. لم أتذكره نهائيًا ولم تهتم زميلاتها أيضًا فكن يَهَبْنَهَا من نظرات عينها النارية وتصرفاتها الغريبة في الآونة الأخيرة لم تكن لتسمح لأحد من قبل أن يدخل دائرتها المغلقة كأقطاب الكهرباء من يقترب منها يصعق، ابتعدت فترة عن تدريسي لهم.. وعندما عدت كانت المفاجأة.

لم أستطع أن أمنع نفسي أن أكتم قليلًا جريان تلك الدماء فأخذت أجففها بفضولي الذي يتنامى بداخلي كشجرة اللبلاب المترامية الأطراف سائلًا:

- أي مفاجأه؟!

وكأنه لم يسمعني.. لم ينتبه لي من الأساس أكمل في هدوء

كانت تقف في ردهة المشفى وجدتها شاردة في ملكوتٍ آخر وريثما اقتربت قليلًا ولكنني في مسافة بعيدة عن مرمى بصرها وجدتها تتحدث في خفوت ثم أسقطت وجهها في موضع قدمها ومرت بجانبي كأنها لا تراني وبعد قليل وجدتها تجلس على الأرض تبكي في صمت.

وقف بجانبها وهي تنظر إليه ولا تراه يقترب منها لما كانت فيه قائلًا: لها

- آنسه نيرة أليس كذلك؟!

نظرت له نظرة هائمة وكأنه جاءها من العدم وفجأه ظهر لها من الفراغ

- نعم أنا هي.

ابتسم لها ثم استطرد:

- أراكِ غير منتبهة للمحاضرة فهل يوجد هناك شيء يضايقك؟

- لا فقط لا أشعر بارتياح

- ممن.. هلا أخبرتِني؟

- من الجميع.. ينظرون لي نظرات مؤلمة ويتحدثون عني يعتقدون أنني غير طبيعية

- ولماذا؟!

- لا أعلم..

نَكَّسَت وجهها في موضع قدمها ولم تستطع أن تكمل الحديث تركته غير مبالية به أو بما سيقول.. وكأنه تبخر من أمامها فلم تعد تراه، مأمورة بالذهاب ويكاد الألم يقطع أحشاءها ومناجل من نار تمزق أوردتها لم تطل المشي طويلًا.. وقفت بجانب جدار واستندت إليه وجلست محتضنة قدميها تطبق على أذنيها بكلتا كفيها وأخذت تبكي بضعف، ووهن من وضع في الأسر ولا مخرج له سوى أنين مكتوم.

للمرة الثانية قاطعته قائلًا:

- هلاوس؟؟!

أومأ برأسه بل أكثر من ذلك الهلاوس مجرد عَرَض لحالتها.

ثم صمت الحديث وغرقت بداخل صفحة المياة التي أخذتني بعيدًا مع إيماني بأني لن أعود.

***

(22)

يجلس مراد في شرفة منزله وقد استطالت لحيته بعض الشيء.. لا يذكر منذ متى أهمل مظهره بهذا الشكل.. حتى زملائه في الجامعة لاحظو تغيره الملفت للانتباه وطلابه أيضًا.. كانو في بداية العام الدراسي الجديد.. عام جديد وفريدة لم تكن بين صفوف الطلاب.. عندما كان ينظر مكانها كان يتذكر نظرتها له وكيف كان ينظر لها يغيب قليلًا ويصمت ثم يعيد ما كان يقوله ولكنه لم يتحمل تلك الحالة التي هو عليها كل شيء قد تبدل.. صراعات بداخله تُميته، لا يعلم هل مَلَّ تلك الحياة التي أصبحت خاوية لا شيء بها، أصبح القتال بداخله على أَوُجُّه بين مولود جديد يطلق عليه اسم شعور بالذنب.. والحب الذي فقده في أوج غرابة الأطوار التي تحيط به.

لم يكن نادمًا.. بل كان يحاول أن يقاتل بروح شيطان فاشل لم يصبر على هدفه.. لم يتحمل أن تراه بوجه عابس وعينان ذئبيتان ولحية كألسنة النار، كان على علم بحالة فريدة ولكنه كان يعتبرها لا تزال مصدومة ولكن حالتها تسربت من بين يدي توقعاته كماء انساب وتسرَّب ولا يعلم كيف السبيل لإيقاف جريانه.. أصبح كل شيء واضحًا وضوح الشمس ولكنه لم يستطع أن ينظر في عين الشمس خوفًا من أن تعميه.. ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

فريدة الماكثة في غرفتها ليلًا ونهارًا يُغلق عليها باب غرفتها عندما يذهب للجامعة وفي كل مرة يعود يتحقق أنه من المستحيل أن يستمر الحال على ما هما عليه ولكنه الخوف عدو الإنسان الأول، لا تزال الأنا تحدثه بمنتهى القوة كيف سيواجه الناس

بها وبحالتها كيف وهو الدكتور الجامعي الذي ظل يرسم كل تفاصيله طيلة حياته وينظمها تنظيمًا ولكن مع التنظيم المتكرر ربما يحدث خللًا ما فللجبروت عيوبًا أسستها الطفولة في أعماقه لا يعلم شيء سوى أنها يجب أن تطفو على السطح ذات يوم.

***

تجلس علياء شاردة الذهن.. يلحظها أحمد من بعيد فيجلس بجانبها ويضع يده الحانية على كتفها في حنوٍ بالغ ورغم كل ذاك الحنان انتفضت من مكانها فاحتضنها مهدئًا إياها قائلًا:

- ماذا بكِ يا حبيبتي.
- إنها فريدة ذهبت بلا عودة
- ماذا قال لكِ مراد
- لم يقل شيئًا مفهومًا ولكن لم أعد أجدها.. أحدثها فلا تجيب وإن أجابت لا أفهم منها شيئًا
- كيف؟!!
- لا أعلم كل ما أعلمه أنها لم تعد هي
- أخبريني ماذا قالت لكِ؟!
- هذيان.. تخبرني بتاريخ لا أعلم كنهه، وتتحدث حوله بأشياء مخيفة اقشعر لها جسدي.. حديثها اختلف بين بكاء وصرخات تنبع من ويلات الجحيم، تخبرني أنها ستنجح في أن تميت الشيطان وأنها الآن تؤذيه مثلما يؤذيها.. لا أعلم لا أعلم أي شيء.
- يجب أن أجري كشفًا عليها، يمكننا أن نساعدها
- كيف؟!
- فريدة أصيبت باضطراب شديد يجب أن أتابعها.. سأتحدث مع مراد بهذا

الشأن حتى لا تتطور حالتها أكثر من ذلك، لا يجب أن نقف مكتوفي الأيدي ونتركها.

تعلقت عيني علياء بحماسه الذي كاد يقطر من عيناه بعدما تشبع به صوته ولكنها عادت لخوفها الذي تربص بها

- هل تعتقد أن مراد سيوافق ؟

- لا أعلم.. ولكننا يجب أن نفعل شيئًا لتلك المسكينة، بعدما قصصتي لي عن حياتها كاملة اعتقد أنها تعاني من مرض نفسي سوف يفتك بها.

لم تنبس علياء ولكنها كانت موقنة أن ما حدث قد حدث لا حيلة في تغييره فبرغم كل القوة التي كانت تتظاهر بها صديقتها إلا أن روحها هَشَّة وعقلها كحبة زيتون تتقاذفها الأيدي لالتهامها حتى باتت عارية من قشرتها وقد اختفى لُبَّهَا بين الأرجل تتقاذفه الأحذية. فقدان توأمتها بات وشيكًا برغم أن روحها لم تفارق جسدها بعد ولكن غاب عقلها عن كل شيء حوله ذهب صفاءها بعيدًا هجرتها ولم تعد هي.. كان هذا كل ما يشغلها مع غضب يتدفق بداخلها تجاه مراد.. ترى هل مراد هو المخطئ فقط لأنه لم يتحملها أو يتفهم حالتها أم أنه كان مجرد شرارة أشعلت النار في الوحش الرابض وكان ينتظر أي شيء ليخرج من عرينه ليتلهم كل شيء أمامه حتى وإن كان على حساب نفسه المتعبة التي هزمها الأسر.

***

يعود مراد لمنزله بجسدٍ مُنهَك وعقل مضطرب وغرائز تحرق.. لم يعد يشعر أنه متزوج بل أصبح مسخًا - ومنذ متى لم يكن مسخًا – كل شيء يغدوه الخلل.. فتح باب غرفة فريدة وهاله ما قد رأى

فريدة تجلس على فراشها عارية تمامًا ممسكة بقلم تكتب به على أجزاء جسدها التي تطالها بدقة متناهية ذاك التاريخ الذي انتقل من أحلامها إلى عقلها الذي بات يردده في كل يوم وليلة مئات المرات بشكل صارخ لا تتحمله وكأنها تبعث رسالة للمجهول مغلفة بجسدها أنه قد أتتني الرساله توقف.. أيها الصوت النابع من أعماقي إنني أسمعك جيدًا وهذا هو دليلي.

نظرت إلى مراد وهو يقترب منها وتكاد الصدمة تشقه نصفين وعيناه تتفحصها بعناية، امتدت يدها إليه بالقلم راجية إياه أن يكتب ما تمليه عليه على ظهرها، جلس بجانبها بعدما أمسك القلم وولت له ظهرها وهي تتحدث بحماس

- أكتب أرجوك أريد للرسالة أن تصل..

أمسك القلم وأسندها بيده وحاول أن يكتب ولكنه لم يستطع، لم يتحمل جسدها العاري حتى وإن كان مشوهًا بخطوط حمراء كالوشم فأخذ يستمتع بجسدها الموشوم مع أنينها الآتي من بُعدٍ آخر وما أن تمكن منها حتى دفعته مردية إياه خارج نطاقها ووقفت بجانب نافذتها تصرخ وهي ممسكة برأسها (ليس من جديد ابتعد عني كفاك تدنيسًا لي).. لم أعد أحتمل، كل هذا وهو يرتكن بركبتيه على الأرض بعدما تخلص من ملابسه ليتحرر من أعباءه القذرة على جسدها المنتهك، استفزته نظراتها العدائية برغم انهيار روحها فَهَبَّ واقفًا صارخًا في وجهها الذي تبدلت ملامحه وأصبح بقايا امرأة وأثر لإنسانة كانت هنا، جذبها من شعرها كعادته الموبوءة فطرحها أرضًا غير مبالٍ بأي كلمة قالتها له إنه مراد لا يعبأ بأحد امتزج عرقه بحبر جسدها فتلون كلاهما باللون الأحمر فأصبحا كأنهما يغوصان في بركةٍ من الدماء وكأنه مقدر عليه أن يصطبغ باللون الأحمرالقاني مثلما صبغت هي به ولكن في هذه المرة لم تكن الدماء من تصبغة بل نزيف روحها التي باتت قتيلة بين يديه القويتان، ذهب في عالم آخر وتركت له جسدها يعبث به مثلما يشاء.. غابت عن الوعي وكأن القدر يقدمها له على طبقٍ من فضة، حتى يفرغ من اجترار قاذوراته التي يلقيها بجسدها المسجى بلا وعي.

لم تكن تلك النهاية له ولكنها كانت النهاية لها في كل شيء باتت تحارب في كل اتجاه بروح مشعثة لم يعد يعنيها جسدها في شيء.. فهو لم يعد ملكًا لها ولا لمراد.. أصبح ملكًا لشيءٍ آخر يبث الأفكار بها بَثًّا ويقطع كل أمل لعودتها إلى فراشتها وألوانها الزاهية أصبح كل شيء أسود قاتم تكتب مأساة داخلية وترسم ألسنة من النار

فتحرق أجنحتها الرقيقة فلم تكن سوى حشرة بالنسبة للجميع.. لا وزن لها ولا قيمة وحده صندوق النفايات هو من يهتم لأمرها، أما هو.. فقد أخذ صدره يلهج بالبكاء عندما وجد روحه قد اتسخت بحمرة جسدها.. ارتعد عندما وجدها قد تحولت إلى قطعة لحم حمراء ووجد جسده قد تلطخ. ولكن لم يعد انتباهه يهم الآن... ذهب كل شيء بلا رجعة ومازال هناك المزيد.

***

obeikandl.com

(23)

كيف تعبث الشياطين بجسد الإنسان، أم أنها تعبث بأفكاره وعقله تتقاذفه ككرة بينهما فيتأرجح ويسقط من قمته إلى قاع الجحيم.. تعزف على شرايينه موسيقى الموت فتجذبها إليها كالأوتار المشدودة على حافتها وتعتصر قلبه بين أيديها المترامية الأطراف فينبض في خفوت يحاول أن يستمر في ضخ الدماء القانية في العروق المشدودة فلا يستطيع فيتوقف عن نبض الحياة ويبدأ في دورته الأخرى.. نبض الموت.

هكذا كانت فريدة تشعر.. شياطين تعبث بجسدها وتقطعه قطع صغيرة غير عابئة بِكَمّ الألم الذي يتخللها ويحيل حياتها إلى قطعة لهب في قاع بركان.. أفكار تبث في رأسها بلا هوية لا تعلم ما هو مصدرها أو من أين.. لم تعد تعلم من هي.. أو ماذا تريد.. تلخصت حياتها في ضربات السياط التي تلتهم جسدها في كل يوم وليلة فأصبحت مجرد فقاعة وكل مهمتها في الحياة أن تصارع تلك النصال التي تخترقها من الداخل بلا هوادة، أصبحت أسيرة شكوكها وخوفها.

تصرخ فلا أحد يستمع إلى صراخها.. تبكي كأنها في صحراء لا يجفف دمعها إلا القيظ الذي ينبع من أحشائها.

***

بعدما انتهت قضية نيرة التي سرقت عماد من فراشه الدافئ بحب سارة.. يعود إلى منزله منهك القوى يحاول أن يستعيد نشاطه بقبلة حانية وضمة رقيقة من زوجته التي اشتاقت له والغائب عنها قصرًا.

للرجل روح في المنزل لا يمكن الاستعاضة عنها فهو ليس كل ما يرمون إليه.. الرجل حياة وروح في منزل هَشّ بدونه.. أنثى بدون رجل كآلة كمان بدون عودها الذي يعزف على أوتار قلبها جيئة وذهابًا.

بعدما استقبله طفليه بترحابٍ وعيونٍ تنبض بالحياة لرؤيته يرتمي على فراشه فتجلس بجانبه سارة تقبله قبلة حانية ثم تهمسها بعتاب يطغى عليه الحب

- اشتقت إليك

يمعن النظر في عينيها طويلًا ولا يجيب فأكملت:

- احتجنا إليك الفترة الماضية كثيرًا.. باتت الغيرة تجتاحني من قضاياك التي لا تنتهي.

يضمها إلى صدره في حركة خاطفة ثم يهمس لها

- وأنا أغار عليكِ من فراشكِ الذي يستأثر بكِ دوني

لم تستطع سارة أن تقص عليه أيًا مما حدث في الفترة الماضية في تلك الساعات المحمومة بنيران الشوق.. أَجَّلَتها قليلًا حتى تهدأ ثورة الغياب.

***

ساءت حالة مراد أكثر مما هو عليه.. لم يعد يعلم ماذا يفعل، أخذ إجازة من عمله لفترة وجلس في المنزل معها.. ولكن كان مكتوف اليدين لم يعد يدخل عليها غرفتها يستمع إلى موسيقاه التي اعتاد عليها ليخفف وطأة تلك الضغوط التي ضربت بجذور حياته وقلبتها رأسًا على عقب وتحولت حياته إلى ربيع خماسيني تملؤه الرياح المحملة بالغبار والأتربة التي تُعمِي الأعين.. بالفعل لم يكن ليرى مراد أيًا من المتغيرات التي تطرأ على فريدة.

يجلس على أريكته مستندًا برأسه على ذراعها ويترك روحه لتسبح مع أنغامه فتخرج فريدة صارخة في وجهه جعلته ينتفض من غيبوبته قائلة:

- ألا تعلم أن تلك الموسيقى تثير أعصابي.. أنت تفعل ذلك لتثير جنوني أليس كذلك.

ينظر لها مراد مبهوتًا مما باتت عليه فلا يتكلم.. ذهبت إلى مشغل الاسطوانات وأمسكت به ثم رمت به أرضًا بكامل قوتها ونظرت له نظرة عدائية تحمل معنى واحد – إياك أن تتجرأ وتقترب مني - .

منذ متى وتلك الموسيقى تثير الأعصاب فليست إلا موسيقى هادئة.. كان يعلم أنها تحبها ربما أدارها ليعيد لها جزءًا من تلك الحياة التي أطلقت جناحيها وغادرتها بعيدًا.. ترى هل الذي يذهب يعود مرة أخرى أم أنه ذهاب بلا عودة وإن عاد لا يعود مثلما كان يعود محمل بالكثير من الأسى بروح مكسورة ونفس مهشمة.. ترى هل لروح فريدة أن تعود.. أم غادرتها للأبد!!

ينظر مراد لمشغل الاسطوانات وهو مُهَشَّم على الأرض وكأنه يرى ذاته في تلك القطع المتناثرة، لوهلة زاره شيطانه أن ينهض وراءها ليهشم رأسها مثلما هَشَّمَت ذاك الجهاز الذي كان يأخذه بعيدًا عن كل تلك الحياة.. ولكن حتى قدميه لم تستجب له ظل هامدًا في مكانه عيناه معلقتان بباب الغرفة المحكمة ويهمس بخفوت.. فريدة ألن تكفين عن جنونك هذا!!.

***

هل تفيد المحاولات لإصلاح الزجاج المهشم أم تظل ندوبه تجرح الجميع.. كان كل ما يشغل بال أحمد في تلك الفترة هو كيف يصلح من نفسية علياء التي تأثرت كثيرًا لحالة صديقتها الوحيدة، فبرغم اختلافهما إلا أنهما كانتا في تكامل.. علياء كانت تحمل بداخلها الكثير من الصبر تجاه كل ما تمر به صديقتها تحملت كل تقلباتها من أجل شيء مقدس يدعى – الصداقة – روحان في تضادهما تكامل هكذا كانتا.

يمسك أحمد بهاتفه ليتحدث مع مراد بشأن فريدة وما أَلَمَّ بها، لا يعلم إن كان سيهتم أم لا ولكن لا بأس من المحاولة.. جاءه رنين الهاتف طويلًا ومملًّا ثم قطعه صوت مراد المنهك الذي يحمل بداخله الكثير والكثير، أخبره أنه يريد أن يراه بعد فترة صمت أجابه مراد أن لا مانع واتفقا على أن يذهب مراد إليه في المساء.. لم يسأل ما مغزى المكالمة ولا لماذا يريد أن يراه كل ما فكر به أنه يريد أن ينتشله شخصٌ ما

مما هو فيه.. الشعور بالضعف هو من أسوأ المشاعر التي قد يشعر بها أي رجل.. أن تحتله الخيبة وتفرض سطوتها على أجزاءه فتترك بداخله بصمة واضحة بلون قاتم تضعها بين عينيه طوال الوقت مفادها – أنت بلا أدنى قيمة – كادت تلك الجملة تفتك به جعلته ينعزل عن الجميع ويترك جسده فريسة لوحش لا يعلم ما الذي سيفعله به.. لم يكن مهتمًا حتى جاءه رنين هاتفه محمَّلًا بصوت أحمد الذي لم يكن يعلم أنه ربما سيكون له طوق نجاة من ذالك المحيط الذي يكاد أن يبتلعه ويفتك به.

لم يكن باقٍ على موعده مع د. أحمد كثيرًا ساعتان ويحين اللقاء، ينهض في تثاقل وهو في طريقه إلى الغرفة ليبدل ملابسه تأتيه الخيالات ترى سيجد فريدة مثلما كانت.. بابتسامتها العذبة التي يتمنى أن ترتسم مرة أخرى على شفتيها الورديتان ولكن ريثما قبض بيده على مقبض الباب وفتحه حتى وجدها منهمكة في تشذيب أظافرها بشكل وحشي بعدما استطالت.. لم يعقب على شيء بعدما رمته بتلك النظرة النارية وأعقبتها بكلمات أشد حرقة.

- لم تنظرون إليّ هكذا؟!
- من تقصدين؟
- أنتم جميعًا..

يلتفت حوله لبرهة ثم يستكمل

- لا يوجد أحد غيري هنا
- ربما.. لا شيء أكيد ولكن الأكيد أنكم كثيرون.. بالداخل والخارج.. قالتها وهي تبتسم ابتسامة هازئة.
- أي داخل وأي خارج.. أنا لا أفهم شيئًا.. لم أعد أفهمك
- لا تحاول.

اقترب منها قليلًا.. قائلًا:

- فريدة.. أنا أحاول أن أفهمك ولكن..

قاطعته قائلة:

- لن تشعر بي.. وفر محاولاتك إن كنت تفعلها حقًا.. اتركني في مضمار حربي وحدي.. فهي معركتي ولابد لي أن أكسبها أيًا كانت النتيجة.

أشاح بوجهه ملوحًا بكلتا يديه وهو يصرخ بها قائلًا:

- كفاكي ألغازًا.. لم أعد أستطيع أن أتحمل ما تفعلينه بي.. لقد اعتزلت عملي ولم أعد أستطيع حتى أن اقف أمام طلابي.. كفي عن كل هذا الهراء.

هَبَّت من مكانها وهي تصرخ فيه بكل ما فيها من ألم.

- اتركوني وشأني.. كلكم تتعمدون أذيتي.. الجحيم تحت جلدي وأنت بارد كالثلج لا تشعر بي ولا بِكَمّ الغليان الذي بداخلي، تثيرون أعصابي وفي هذا خطر كبير على جنيني الذي أحمله.. ألا تعلم هذا، كثرة الضغط ربما يسبب لي إجهاضًا مرة أخرى.. لا أريد أن أفقد الجنين.

برقت عيناه مما تقول جرى عليها مثل السهم وأمسك برأسها وهو يَئِنّ من الوجع

- فريدة ليس هناك جنينًا أفيقي مما أنتِ فيه.. أستحلفك بـ..

لم تتركه يكمل وقاطعته لتستكمل حديثه قائلة:

- أستحلفك بشياطيني أن تتركني.. بداخل أحشائي جنين أنا أعلم ذلك

- عن أي جنين تتحدثين.. لم أضاجعكِ إلا منذ أسبوع مضى فكيف.. هَلَّا أخبرتِني

علت على وجهها نظرة مميتة وشفتيها تقطر قهرًا

- الشياطين تضاجعني آلاف المرات في كل يوم وليلة، هناك العديد منهم بداخلي والأجنة تتملكني، جسدي مليء بالنُطَف.. ثم مدت له ذراعها لتريه، انظر إنها تتحرك تحت جلدي أشعر بها كالنيران تحرقني، ألا تراها!!

أمسكها من كتفيها وظل يهزها والانهيار بادٍ عليه قائلًا

- لقد جُنِنْتِ.. كُفّي عن جنونك.. هذا فوق احتمالي

ثم رماها على فراشها وانطلق لخزانة ملابسه جذب أي شيء أمامه لم يكن مهتمًا

بما سيرتدي كل ما كان يسيطر عليه أن يخرج من تلك الدائرة التي تحيط به، ارتداهم على عجل وطرق الباب خلفه غير لاويًا على شيء لا يعلم ما نهاية الجنون الذي أَلَمَّ به أم أن الجنون يمسك بمنجله الحاد ويقصف أجمل زهور العمر.. في كل لحظة كان يشعر بالفقد والحنين ويهمسها بروح قلبه المنهك.. عودي إليّ فراشتي فأنا.. أحبكِ.

***

وصل إلى عيادة د. أحمد لا يعلم كيف كل ما يعلمه أنه خرج من تلك الهوة ولو لبعض الوقت.. الدموع على حواف عينيه يمنعها كبرياؤه عن الهطول، قلبه يعتصر وقدماه لا تقوى على المزيد من أحمال جسد هَزُل قوامه مثقلٌ بأوجاعه.. عندما دخل استقبلته الممرضة قائلة:

- دكتور مراد أليس كذلك.. لقد ألغينا جميع المواعيد من أجلك اليوم فحتمًا أنت.

أومأ برأسه لم يقو حتى أن ينبس بنعم.. استكملت

- دكتور أحمد في انتظارك.. من فضلك اتبعني.

تقدمته وطرقت الباب بضع طرقات ثم فتحته له وتركتهم.

لم يتوقع د. أحمد الحالة التي عليها مراد.. ذقن غير مشذبة وعينان تغطس في هوة من السواد الذي حولها وجسد قد نَحُلَ من كثرة الهموم.. حتى هندامه لم يكن منسقًا كان يرتدى قميصًا يُخرِجُهُ خارج بنطاله وقد تخلى عن ربطة عنقه ومعطفه كان على غير عادته في كل شيء، أشار إليه بالجلوس بعد أن سلم عليه جلس مراد في صمت مطبق وهو يجاهد ألا يبكي ولكن لم يطل الجهاد طويلًا، ريثما سأله مضيفه عن ما ألم به أجهش بالبكاء..

بكاء الرجل ليس ضعفًا مثلما أخبرونا قديمًا.. الرجل حينما يبكي يبكي وجعًا وقهرًا وكأنه قد تقطعت به السبل ولا يعلم ماذا يفعل، منذ الطفولة يلقنوها لنا.. تلك الجملة السقيمة (الرجل لا يبكي).. وَلِمَ لا أليس إنسانًا يشعر.. أم أن الرجولة قوة فقط.. وفي دموع الرجل قوة ولكن ليست في جموده بل في إنسانيته وقلبه.. جملة ندفع ثمنها جمودًا.

تركه يبكي ويُخرِج كل ما في جعبته من دموع تكاد تفتك به إن كتمها أكثر من ذلك، اقترب منه ووضع يده على كتفه ثم جلس قبالته قائلًا:

- ماذا بك يا مراد؟!

كفكف دمعه بكلتا يديه ثم استند على مقعده وتحدث بصوتٍ واهن متحشرج:

- كل شيء ينهار من حولي
- فريدة!!

أومأ برأسه أن نعم، استكمل أحمد

- علينا أن نساعدها.. يجب أن تأتي بها إليّ.
- لقد أحالت الحياة إلى جحيمًا لا يطاق..

قَصَّ مراد كل ما حدث ويحدث على د. أحمد مما أكمل الصورة التي كانت تحكيها له علياء مما زاد إصراره على أن يتولى حالتها بعدما يجلس معها لتستطيع أن تعيش الحياة لا أن تعيشها الحياة. ذلك ظن وليته يصيب، كان د. أحمد يستمع إليه وكأن على رأسه الطير كان تقريبًا قد حدد حالة فريدة وموقن أيضًا أن مراد على علم نسبي بها ولكنه.. ينكر أو ربما لا يريد أن يعترف بأن.. بداخل منزله مريضة بالفصام!.

***

(24)

أمشي على الرمال المُنَدَّاة بماء البحر المالح.. أتركها تلتصق بي وتحتضنني عندما تغوص أقدامي بداخلها.. أستسلم لجذب الأمواج لي وأنا على شاطئها.. أشعر بها تلمس روحي وتأخذني إلى اللامكان واللازمان.. أحب البحر ولكنني لم أغُص به يومًا أعشق رائحته وهواءه ونقاءه، ليت البشر بهم مثل هذا النقاء، تأثرت كثيرًا بما حكاه لي د. شادي لم أكن أعلم أن المأساة بذلك الحجم.. ولكن الآن فقط علمت.. حتى الأرواح تمرض وتئِنّ، تترك الجسد ولكنها مثقلة بأمراض العقل، يا لَكِ من مسكينة يا فتاتي، خذلك عقلك.. فاستأثر بكِ فقرك فذابت هوية آدميتك، فانتُهِكَ عِرضُكِ.. فزُهِقَت روحك، إنه الألم لا مهرب منه أينما أذهب.

لازلت أتذكر كل ما قاله لي بل وكأنه البارحة، لم يشبع جوعي النَهِم لمعرفة باقي الألغاز التي بعثتها لي عبر طيفها على صفحة النيل، لايزال كل شيء في مكانه في ذاكرتي

كان قد تبقى لُغزَين باستطاعتي أن أسأل عنهما أما الثالث فلا أعتقد، فسيظل مبهمًا.. عاودت الاتصال بدكتور شادي من جديد في صبيحة اليوم التالي، لم يخذلني وأجابني برحابة صدر وعندما طلبت مقابلته لم يمانع أيضًا ولكن على أن نلتقي في عطلة نهاية الأسبوع.. لم أُصِرُّ عليه كثيرًا رغم احتراقي ولكن الضغط ليس من صفاتي، كان فقط كل ما عليّ أن أفعله أن أمارس حياتي بشكل طبيعي انخرطت قليلًا مع الجثث من جديد ولكن لم يحدث شيء مبهر أو على غير العادة وليتني لم أمَلّ الاعتياد ففيه الكثير من الراحة ولكن لم تكن لي بالطبع ولم أكن يومًا من محبي

الراحة حتى في إجازتي تلك وأنا أمام البحر وتحت أقدامي رماله.. أشعر بافتقاد لكل شيء ولكن.. لم تَحِن العودة بعد.

حان موعدي معه.. ذهبنا لنصافح النيل بعيوننا من جديد كان قد خرج من حالة الندم التي كان عليها في المرة الماضية يعاود الاعتياد شَقَّ كل المشاعر التي نعيش بها، ولكنني لا ألوم عليه فأنا قد اعتدت جثثي وهو قد اعتاد مآسي المرضى وحالاتهم فلم يعد هناك شيء يؤثر.. كلانا قد ارتفع حائط الصد تجاه ما يلاقيه ولكن من الواضح أني لم أُعَلِّي في بنيانه بعد، ذهبت رهبة الموت وتركت ثقوبًا تنفذ منها الأرواح لأرتبط بها.

قطع شرودي بسؤاله عني وعن أحوالي، أجبته في فتور لاحظه عليّ ثم ابتدرني سائلًا:

- لا تنشغل كثيرًا بما مضى، يجب أن تتخطى كل ما حدث.
- حتمًا سأتخطاه مثلما تخطيته أنت أيضًا
- لقد عَلَّمَتني مهنتي أن أتخطى العديد والعديد من المشكلات والحالات التي تمر عليّ إن لم أفعل ذلك ربما تجد كل الأطباء النفسيين يجاورون مرضاهم في غرفهم ولا يجدون من يعالجهم جميعًا.

أومأت برأسي مصدقًا على كلماته ثم استكملت حديثه.

- أنا فقط أريد أن أعلم.. سر اللغز الذي طرحته عليّ نيرة
- أي لغز؟!!
- من هي فريدة وما هو ذاك التاريخ الذي طرحته
- فريدة!! وما هو التاريخ
- 2016\6\6
- !!!
- ماذا بك؟؟! ألا يوجد لديك أي معلومات عن هذين اللغزين

أطرق برأسه بعيدًا ثم نظر إليّ قائلًا:

- سأقص عليك.. فكان يومًا لا يُنسَى

فريدة كانت تأتي مع الدكتور ماهر دكتور الباطني الذي كان يأتي لعيادة بعض المرضى النفسيين الذين كانو عندنا، كان متبرع بكل زياراته لنا رغم علو مكانته.. ففي مستشفى للتأهيل النفسي تجد كل شيء تحت الصفر، فريدة كانت مساعدة الدكتور ماهر كانت غريبة بعض الشيء دومًا مرتابة من كل شيء.

جاء ذاك اليوم الذي ذكرته.. فحدث به حادثة جمعت بين فريدة ونيرة كانت حديث كل المستشفى كانت الطالبات تقفن حول المريض ليتابعن كيفية التعامل مع المرضى الذين تداهمهم تلك الحالات سواء بسبب العلاج أو تدهور كل شيء أو حالاتهم المتردية وإذا بفريدة تصرخ في نيرة قائلة:

- توقفي عن محاولاتكِ فإني أراكِ جيدًا ولكنني أتغافل عما تفعلين لعلكِ تتوقفين ولكنكِ استمرأتي

بُهِتنَا جميعًا مما قالته والأغرب هو انكماش نيرة مما قالته فريدة لها همست نيرة.. (ماذا فعلت!!).

اتهمتها فريدة أنها حاولت سرقتها وأنها كانت تحاول مد يدها في حقيبتها، وعندما سألنا فريدة ما الذي ينقصها أخبرتنا أنه لم ينقص شيء ولكن في كل مره نيرة تحاول سرقتها، بعضنا صَدَّق ما قالت لأن نيرة تحتل مكانة رفيعة في منزلة الفقر المدقع.. وقف بجانبها دكتور ماهر.. لم أكن بمصدق ما قالته فعلى البرغم من غرابة تصرفات نيرة فلم تكن سارقة قط ولكن دومًا الفقر يقف خلف قضبان الاتهام.. كل ما كنا نلحظه أن كلتيهما كانت غريبتا الأطوار ولكن.. سِرّ عدائية فريدة لها لم يكن له تفسير، أصرت فريدة أن تحرر محضرًا لنيرة بعدم التعرض لها ولكننا احتلنا عليها أنني سأكتفي فقط بلفت نظرها وتقديم شكوى إلى معهدها وأن لا يأتون بها هنا من جديد.. وبالفعل لم تأتي ولكن ليس بسبب المحضر ولكن بسبب ما قصصته أنت لي.. لذلك أذكر ذاك اليوم جيدًا وتاريخه مطبوع برأسي.

بعدما انتهى من قَصّ تلك القصة، تكاثرت أكثر علامات الاستفهام برأسي وكأنها

تتكاثر ذاتيًا أو تنقسم وكأنها كائن وحيد الخلية، لِمَ تخبرني عنها؟! ما هذا العبث لم أعد أعلم شيئًا.

هناك ثمة مجهول يجب علينا ألا نطرق أبوابه فمعرفته تزيدنا جنونًا وتحيل الحياة إلى مستنقع من النتائج غير المعلومة وتزيد الضجيج بداخل رؤوسنا فلا نعلم كيف سنستكمل الحياة بعدما نعلمها أو حتى كيف نتجاهل ما علمنا به بفعل ذاك الشيء الغبي الذي يطلق عليه – الفضول - ولم ينتهي فضولي عند هذا الحد بل أخذني بعيدًا بعدما علمت من تكون هي " فريدة ".

***

بعدما انتهت ثورة الشوق التي بين عماد وسارة.. لم تجد بُدًّا أن تلقي عليه بعض همومها بعدما ألقى بها في هوة حنانه الذي كانت مشتاقة إليه.. قَصَّت عليه كل ما حدث لفريدة ومراد.. كان قلبها ينفطر على أخيها الذي تبدل حاله ولم تعد تراه إلا محزونًا.. حتى فريدة رق حالها لها فقد كانت تحبها حقًا رغم كل فرق السنين التي بينهما.. الحب لا يعلم أعمارًا الحب هو الحب فقط تآلف أرواح ليس أكثر، حزن عماد لكل ما حدث الفترة الماضية لم يكن يُكِنّ لمراد أي ضغينة فقط لانه شقيق زوجته، حاول أن يخفف عنها وأن يطمئنها أن كل شيء سيكون على ما يرام.. ولكنها تلك الكذبة التي لا ننتهي منها ونعيدها مرارًا وتكرارًا حتى نصدقها.. ونعيش على أملها.. كذبة جميلة تساعدنا أن نتخطى أوجاعنا لمجرد أن يهمس بها فقط.. من نحب.

صدقته سارة وأراحت رأسها على كتفه وَغَطَّت في نومٍ عميق.

عندما نرمي همومنا على أكتاف الآخر نشعر بقليل من الارتياح فقط لأن هناك من نستند عليه إنه الأمان.. الأنثى لا تريد من رجلها سوى – الأمان - ، تلك الشجرة التي تظللها من متاعب الحياة وتسكن إليها، لم يكن يعلم عماد أنه سيكون لمراد وفريدة دورًا في حياته بعد وذهب مع سارة في سُبَاتٍ عميق تاركًا كل شيء خلفه.. لم يكن يعلم أنه سيأتيه مهرولًا.

***

أيقنت أن لا شيء يأتي مصادفةً، فكل شيء بقدر.. نيرة تعاني من مرض نفسي لا يعترف به الفقر ويترك مرضاه يعانون ويلات الخُزَعبَلَات ويقعون فريستها بلا أدنى رحمة.. ولكن السؤال الذي يتملكني.. تُرَى لماذا كانت تريدني أن أعلم بقصة فريدة هل لتزيد من تعاطفي معها!! وما دور الشياطين في تلك القصة وما مفادها في تلك الإشارات والرسائل التي لازالت تبثها لي.. يكاد رأسي ينفجر.. لم أشعر بعيناي إلا وهي تسدل ستائرها معلنة عدم صمودها لكل ما تلاقيه وتحول كل شيء إلى رؤى لا نهاية لها في تلك الأثناء رأيت نيرة وبجانبها فتاة أخرى يحترق جسدها بالنيران وما أدهشني أنها لم تكن لتصرخ صرخة واحدة أما نيرة فقد كان الخوف يقتلها مما تراه كانت تحاول أن تصرخ ولكن أبت أحبالها الانصياع لتلك الرغبة.. ثم تحولت الرؤى إلى سواد قاتم وكأن عين أحلامي قد أصابها العمى، لم أكن أعلم أن الرؤية ستتحقق بعد بضع أيام مما أصابني بالذهول الذي أخرس لساني وأصابني بشلل داخلي مقيت.

***

(25)

طوال طريق عودته من عند د. أحمد ظل يفكر فيما قاله له، لام نفسه كثيرا أنه ذهب من الأساس إلى عيادة دكتور نفسي.. لعن حالته التي جعلته لا يعقب أو يختار أي مكان آخر يلتقي به فيه.

بعدما نجد من يتحمل معنا بعض من المسؤولية نبصر بعين نفسنا أنفسنا ونبصر أين نحن وفي أي مكان نقف وفي طريق عودته أبصر مكانته التي لا يتماشى معها وضعه، ولكن ما حدث قد حدث، اختلجت نفس مراد بالكثير من الأحاسيس المتضاربة بشأن زوجته، بين حبه لها وكيف سيواجه الآخرين بمرضها.. وبرغم مكانته التي هو عليها علميًا إلا أنه لا يزال المرض النفسي عار على من تحتوي منازلهم على فرد مصاب به.

خجل أكثر من تفكيره الذي شطره نصفين نصف مع معتقدات المجتمع السقيمة وجزء مع عقله الذي لا ينكر ذلك.. عاد إلى منزله يتقاذفه شطريه فإذا به يرفع هاتفه ويهاتف شقيقته سارة في خفوت، هالها صوته وزاد قلقها عليه عندما شعرت بِكَمّ التمزق الذي يختلجه من نبرات صوته المرتعشة تمنت أن تحتضنه مثلما كان صغيرًا يأتيها باكيًا عندما يحدث له أي شيء يحزنه.. الآن كل شيء تغير لم يعد صغيرًا وكم الوجع الذي بداخله أكبر من أن يبكيه على صدر شقيقته، كان يتحدث إليها بصوتٍ واهن.. أخبرها بكل شيء وزيارته للطبيب النفسي بخصوص ما تمر به فريدة.. صَرَّح بتخوفاته من أن يعلم أحد ما تعاني منه واعتباره له فضيحة تمس

مركزه الاجتماعي، سمعته في صمت ربما أيدت موقفه بعض الشيء ولكنها لم تنصاع للجذور الميتة التي دَبَّهَا المجتمع في أصولها.. أخبرته أنه يجب أن يعالجها وأن لا يتركها فريسة لما تعانيه إن كان يحبها حقًا، واستنكرت مخاوفه عليه وعندما كان يرد عليها بهمس خرجت فريدة من غرفتها.. رمقته بنظرة حادة وهي في طريقها إلى مطبخها.. تعلقت عيناه بها بعض الشيء وأسقط يده بالهاتف بعيدًا، ثم انتبه على صوت سارة وهي تناديه بهلع والقلق يكاد يغتالها بعدما انقطع عنها صوت أنفاسه، أعاد الهاتف مرة أخرى على مسامعه يطمئنها أن لا شيء به وأنه فقط سيغلق الهاتف مع وعد بأنه سوف يحادثها مرة أخرى، لم ينتظرالرد وباغتها بصوت تلك الصافرة التي تنطلق إيذانًا بانتهاء الحديث.

لم ينتظر طويلًا ذهب ورائها وهو على أَتَمّ استعداد أن يتقبل منها قذائف اللهب التي تخرج من عينيها ولكنه فوجئ بها هادئة الملامح وعيناها تنزف دمعًا.. ضَمَّهَا إلى صدره وهو يزفر زفرة حارقة أشعلت بداخله كل مشاعر الحب، شعر بطفولتها بداخله ودموعها تختلط بدموعه همس لها بأنه لن يتركها هكذا وأنها ستكون بخير تحدث كثيرًا وهي مستسلمة بداخله لا تحرك ساكنًا، تحدث وكأنه ذاك الأصم الذي عاد إليه سمعه تحدث ليسمع صوته من جديد ولكن مراد كان يريد أن يستمع إلى صوت دقات قلبه التي تدق فترتد بداخل جسد آخر يحتويه وينبض من أجله، أيقظت بداخله كل الحنين ولكنه حنين لم يكتمل هبطت من بين ذراعيه بالكاد لحق بها فقد أغشي عليها.. حملها لفراشها في هلع ولعن الجاذبية الأرضية التي سحبتها إليها من بين يديه.

لِمَ لا تنعدم الجاذبية عندما نكون بين أحضان من نحب فنطير سويًا كما تطير قلوبنا بدقات الحب.. ولكنها تلك هي الحقيقة – لا شيء يدوم على الإطلاق – فبرغم إغماءتها إلا أنه ظل يتأمل وجهها الغائب عن الوعي بوداعته برغم شوقه لبريق عينيها.. فآثر أن يفيقها وعندما أدركته تكورت كجنين متلحفة بفراشها بين يديها ضمته إلى صدرها وأولته ظهرها وأخذت تبكي بكاء المقهورين تحت أسر عجلات

الذل، جلس بجانبها يبكي في صمت وفي تلك اللحظة فقط.. أيقن كم يحبها وقد اتخذ قراره بأنه لا شيء يساوي عودتها إليه من جديد، رمى كل شيء خلفه حانقًا على كل شيء المظاهر الاجتماعية الخانقة والمعتقدات البالية وتلك الحياة الرخيصة والجذور المتهرئة التي تكاد تقتلعه من مكانه.. تبًا لكل شيء يقتل روحنا وإنسانيتنا من أجل مجدٍ زائف، لم يعد هناك شيء يهمه سواها.. هي فقط ولا يعلم هل لازال يهمها أم لا أم غاب قلبها مع عقلٍ تربص به المرض فكاد أن يفتك به.

***

في اليوم التالي هاتف د. أحمد وتحدث معه بخصوص قراره الذي اتخذه.. سَعِد بقراره وحدد له موعدًا على أن يأتي إلى فريدة في المنزل في المساء.. كان موقنًا أنها لن تأتي من تلقاء نفسها أو أنها ستمتثل لمراد أن يصطحبها إليه، ربثما أغلق الهاتف ذهب إلى علياء ليخبرها أنه سيصطحبها إلى صديقتها ليلًا وَقَصَّ عليها كل ما حدث وأن مراد مستعد لخوض رحلة العلاج مع فريدة، ذهبت معه في عناق طويل حتى تداخلت عظامهما، كانت سعيدة لبزوغ ذاك الأمل الذي سيعيد إليها صديقتها من جديد، الآمال أحيانًا بارقة أمل وأحيانًا تكون آمالًا مجهضة لا فائدة منها سوى تلطيخ أفكارنا بدماء الوهم الذي يقتلع أرواحنا بضوءٍ زائف، دعَت الله كثيرًا أن لا تكون وحيدة دونها.. فليس هناك أقسى من أن تفتقد جزءًا منك بدماء مختلفة عنك على هيئة صديق.

حان الموعد حاول مراد أن يهيئ الأمر لفريدة ولكنه لم يجد فرصة ولا طريقة ترك كل شيء كما هو.. جاءته طرقات الباب ففتحه لعلياء وزوجها فدخلا استقبلهما بترحاب وجلسا سويًا بعض الشيء ولكن علياء لم تُطِق صبرًا تركتهم ودخلت إلى فريدة.. التي كانت في عالم آخر، كانت خطواتها متوجسة بعض الشيء هالها هيئتها وكل ما باتت عليه نحفت كثيرًا وباتت عيناها غائرتين وأظافرها المدببة التي استطالت وشعرها الذي تركته على حالته مسترسلًا ولكن خصلاته ثارت عن مسارها فشعثت بعض الشيء.. كانت ممدة على فراشها فارجة عن قدميها وفاردة ذراعيها..

وكأنها مستسلمة تمامًا لأي شيء بصرها مثبت على نقطة في الفراغ في سقف الغرفة يُخَيَّل إليك عندما ترى عينها أنها قد فارقت الحياة ولكنها كانت تتنفس بروحٍ مدفونة ذهبت إلى اللاعودة.. في هوة الجحيم.

جلست علياء بجانبها فالتفتت لها فريدة بعيون تائهة ثم انتفضت من مكانها قائلة لها:

- كيف دخلتِ.. كيف سمحوا لكِ أن تدخلين؟!!
- فريدة.. أنا

لم تتركها لتكمل حديثها قاطعتها قائلة:

- أعرفكِ جيدًا.. فلم أنساكِ قط.. كيف أنساكِ وأنتِ تزورينني كل يوم في أحلامي ولم تَهْنِي يومًا لمساعدتي أعلم ذاك الضعف المستكين في عينيكِ فما هو إلا شحذ للشفقة أنا لا أحتاج شفقتك ولا عندي ذرة شفقة عليكِ.

ذهلت علياء مما قالته للتو حاولت أن تتكلم ولكنها بهتت بما قالته فريدة مستطردة:

- كفاكِ ما فعلتِ بي
- ماذا فعلت بكِ؟! هلا أخبرتني من أنا؟ قالتها والتعجب ممزوج بالألم
- تهزأين بي حتمًا.. أنتِ نيرة ومن غيرك يكون.. إنَّكِ تتربصين بي هل نسيتي؟!!!

تقاذفت المشاهد أمام علياء وَهَبَّت واقفة من مكانها بعدما تذكرت كل ما حكته فريدة وأبيها عن ذاك اليوم في مشفى التأهيل النفسي ثم هرعت للخارج إلى زوجها ومراد وهي تبكي وبعدما هدأت قَصَّت ما قد كان عليهما فتركها زوجها ودخل على فريدة ليتحدث معها قليلًا، كان يهمه أن يزيل تلك الريبة من داخلها تجاهه التي باتت ظاهرة على عينيها التي فقدت بريقهما كفاقدي البصر.

تغيرتِ يا فريدة كثيرًا وكأنكِ لم تعودي أنتِ.. كم هو قاسٍ المرض يسرقنا من أنفسنا فيصبح من الصعب حتى أن نتعرف على ذواتنا التي ذابت في كوبٍ من الخلل الذي يسحق عقولنا.

* * *

(26)

الاغتراب.. يُمَزِّقُ كل شيء بداخلنا، أن تكون غريبًا عن روحك التي تسكن أضلعك شيءٌ قاتل ولكن أن يجتمع الاغتراب عن أرواحنا وعن من نحبهم ويحبوننا.. يصبح إلاغتراب المعتقل الذي يأسرنا لا نرى أنفسنا ولا يرانا أحد محجوزون بداخل زنزانته محجوبون عن كل شيء.

الاغتراب مِنجَلٌ يجتثُّ زهورَ الألفة من ذاكرتنا ويترك أرض عقولنا لا تصلح للزراعة لأن بها جذورٌ أصابها الموت وتعفنت تصيب العقل بسرطان قاتل يسمى بـ- الفصام -.

دخل د. أحمد لفريدة جلس قبالتها سائلًا إياها عن حالها، أجابته باقتضاب لم يُعِر اقتضابها شيئًا نظر إليها مليًّا ثم وقعت عيناه على أظافرها المدببة ثم ابتدرها قائلًا:

- كيف تشعرين في الفترة الأخيرة يا فريدة؟

أجابته بوهن.

- لستُ على ما يرام.

- هل تستطيعين أن تصفين إحساسك في تلك اللحظة؟؟

- لا أعلم..

- حسنٌ.. هل أستطيع أن أقيس مِزَاجَكِ من -1 10، حيث عندما تقولين 1 فهذا الأسوأ بينما 10 هي الأفضل.. ما رأيك؟

- واحد
- ماذا تشعرين تجاه (مراد)
- يكرهني.
- هل يوجد أحدٌ معنا؟
- الآن لا.. ولكن يأتون فجأة
- هل تسمعين أصواتًا لا تعرفين مصدرها؟
- نعم.. إنها في عقلي
- هل تعتقدين أن هناك أحد يريد أن يؤذيكي؟
- نعم بالطبع الكثير.. جدًا
- هل تستطيعين أن تخبريني أي يوم في الأيام نحن؟
- لا أعلم ربما يوم غريب عن باقي الأيام
- حسنٌ في أي شهر..
- بعد إخفاقي بسنوات
- في أي عام؟
- ما رأيكَ بأظافري؟

لم يعر سؤالها اهتمامًا وأكمل.

- هل تشعرين بأن أحدًا يَبُثُّ في رأسِكِ أفكارًا ليست لكِ
- إنهم يتحدثون في كل وقت.. لا يكفون عن الحديث
- وماذا يقولون لكِ
- إنني لا شيء ولن أستطيع أن أقاوم أكثر من ذلك

استكمل حديثه غير مُعَقِّب بعدما انتهى من بعض أسئلته التشخيصية.

- ماذا فعلت نيرة؟!

التفتت له التفاتة حادة ثم أجابته

- تتربص بي دومًا، حاولت سرقتي.. دومًا نظراتها لي توحي بالشك لا أعلم ما بها حتى أحلامي تأتيني بها لتؤذيني.

obeikandl.com

- وهل هناك أحدٌ آخر يؤذيكي

- الكثيرين ولكنني سأنتقم.

- من هم!!

لم تُجِبه وظلت صامتة ثم همستها بضعف

- حولك.. وبداخلي.. ولكن ليس جميعهم يؤذونني

- حقًا!! كيف؟

- بداخلي قبائل تتصارع منهم الطيب ومنهم الشرير.. الطيب منهم يريد أن يجعلني أنتصر على الشرير منهم.. ولكن هناك بعض الخلل في القاعدة التي تعطيهم الدعم فلذلك علي أن أتحمل أذى الأشرار إلى أن يأتي الدعم.

- حسنًا.. ربما أدعُمُكِ أنا لتستطيعين أن تنتصري عليهم.

لم تجِبه وكأنها لم تسمع شيئًا.. استطرد قائلًا:

- فريدة.. يجب أن تتجاهلي تلك الرؤى وكل ما تسمعين يجب ألا تصغين إليهم

- ألا تفهم.. أنا أسير بتوجيهات منهم.. ولكن عليَّ أن أصبر حتى القاعدة (الدرعاوية) تتحسن فهم ذاهبون ليتلقوا المدد من بلدٍ آخر

- إذن هم ليسو بداخلك الآن؟!

- لا.. ولكن نتراسل

- عبر ماذا؟

- جهاز إرسال

- وأين هو هذا الجهاز

- في كعب قدمي.. أتريد أن تراه؟!

- نعم.. هل من الممكن.

- لا أعلم.. سأخبرهم أولًا فربما لا يريدون لأحد أن يراه فيتم سرقته

صمت قليلًا.. ثم استكمل

- كيف حال جنينك
- يحرقني فليس واحدًا هم كُثُر.. يتجولون بداخلي
- ومراد

برقت عينها لسماع اسمه مرة أخرى ثم اقتربت منه قليلًا وقالت

- أخفض صوتك.. فهو بداخلي يسمعنا.
- ومن الذي بالخارج إذن؟؟!
- الشيطان.. ولكن لا تقلق فلن أتركه يهنأ بها.
- ومن تكون؟!!
- عشيقته
- حقًا وهل له عشيقه
- نعم.. لقد سمعتهم بالأمس يتحدثون بهمس.. وَلَكَم آلمني ذلك.. كنت أحبه فيما قبل ولكنه أصبح شيطانًا.. سأنتظر شياطيني الراعون.. لِيَبُثُّوا في أمره.. لست قلقة كل ما أريده أن تتوقف الشياطين الشريرة عن إيذائي تكوي أوردتي فتتجلط بها دمائي فأشعر بقلبي يكاد أن يتوقف.
- ما رأيكِ أن أعطيك علاجًا يجعل كل الآلام تذهب عنكِ؟؟
- ربما.. ولكنني أثق بالدرعاوية أكثر.. سأنتظرهم
- لن يضير.. تأخذينه ريثما يأتون

نظرت له بشك.. ولم تجبه ولزمت الصمت.. لم يزد في الحديث أغلقه معها على أن يزورها مرة أخرى وشدد عليها أنها يجب أن ترد الزيارة ولكنها ظلت صامتة كمن فقد السمع أو كأنما هي ترهف السمع لشيءٍ آخروبالفعل قطعت صمتها قائلة:

- رجاءًا أخفض من صوتك فالدرعاوية يتحدثون لي.. حمدًا لله فقد استجابو لي.

تركها أحمد.. بعدما حدد حالتها وخرج لمراد وعلياء والتوتر بادٍ عليهما.. جلس بجانب علياء يطمئنها ثم التفت إلى مراد قائلًا:

يجب أن تنتقل فريدة إلى مصحٍ نفسي.. حالتها متدهورة، صمت مراد كأنه قد سمع حكم إعدامه للتو.. وردد (مصح نفسي).. زاغت عيناه وجلس راميًا نفسه على المقعد قائلًا:

- كيف هذا؟! مستحيل لم نتفق على ذلك

جلس بجانبه د. أحمد ثم أجاب سؤاله بسؤالٍ آخر

- كيف ماذا؟! وما الذي لم نتفق عليه؟!

- ألا تعلم.. كيف أودعها مصحًا نفسيًا.. ووضعي الاجتماعي.. أنا وافقت أن تراها هنا في المنزل بصفتكم أصدقاء... لا أن تخبرني أننا علينا أن نودعها مصحًا.. لا يمكن ذلك.. لن أستطيع أن أواجه أهلي وأخبرهم أن زوجتي في مصحٍ نفسي.

صرخ في وجهه أحمد قائلًا:

- وأين هي زوجتك.. هل من الممكن أن تخبرني، أين هم أهلك كي يتحملوا معك ما تعانون منه أين أهلها هي.. كيف لك أن تكون بمثل تلك الأنانية.. تتحدث كطفل أرعن لا يهمه في الحياة إلا أن يحتفظ بدميته حتى وإن كانت مكسورة الأرجل، اسمعني جيدًا يا دكتور مراد.. زوجتك تعاني من أخطر أمراض النفس البشرية.. لن تستعِدها مرة أخرى إلا إذا أيقنت أنت أنك تريد أن تستردها، وسوف أُحَمِّلُكَ مسؤولية أي شيء يحدث لها.. هل فهمت

- هل تهددني؟!!

- لا.. بل أنا أحذرك فقط.. أنت ترتكب جريمة في حق نفسك وحق فريدة وكل هذا من أجل ماذا.. الآخرين.. تبًا للآخرين عندما يُفقِدُونَنَا إنسانيتنا من أجل عبثيات.. استفق مما أنت فيه أنت تتحدث بعقلية الجُهَّال.. أفِق من غيبوبتك تلك الآن قبل أن يفوت الأوان.

وعند آخر جملة له هَبَّ من مكانه واقفًا وترك مراد بعد أن سحب علياء من يدها وخرجا وتركاه يسند رأسه على كفيه غائصًا بين قدميه.. لا يعلم ماذا يفعل عادت الصراعات تفتك به وتمزقه من جديد، لم يكن يعلم من هو.. هل هو الدكتور

الجامعي الذي يدرس لطلابه أهمية علم النفس وعلى درجة عالية من العلم والثقافة.. أم هو رجل عادي لا يعلم أي شيء عما تحويه النفس البشرية ولا كيفية الاهتمام بها.. شعر بالتمزق الذي بداخله يجرده من درجاته العلمية ومن أسرته التي تنتمي لطبقه في خارجها الثقافة كالقشرة ولكن بدواخلهم الجهل طبقات متعفنة لا يعلم أحدٌ عنها إلا في تلك الشكليات الفاسدة التي ينتهجها المجتمع بأكمله، أصم أذنه قليلًا عن صراعاته التي تفتك به ثم سمع قلبه يهمس (فريدة)، ألقى برأسه على مقعده وأغمض عينيه، ربما يفقد مع الرؤية كل شيء.. ولكن هل تكون الرؤية دومًا بصر.. وما فائدة البصر إن لم يكن القلب يرى.. فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، كان قلبه يَئِنّ.. ربما من محاولات إماتته يحاول أن يتشبث بشيءٍ واحدٍ هو.. فريدة.

***

obeikandl.com

(27)

الأجواء غائمة لم تكن السماء تنبئ بهطول أمطار ولكن ضياء الشمس مختبئ والسحب رمادية متجمعة في صفوف وكأنها تقف في موكب جنائزي مهيب.. لا يوجد أثر للرياح.. أو حتى نسمات الهواء. وكأن كل شيء متآمر لتستقبل السماء أروحًا غادرت أجسادها.

الأجواء خانقة برغم فصل الشتاء..كل شيء ثابت عدا سيارة إسعاف صوت صافرتها يُصِمُّ الآذان وحشد من الناس مجتمعه حولها، وناقلة إنقاذ ملفوف عليها كيس بلاستيكي أسود مغلق بسحابة من الأقدام إلى أعلى الرأس.. والعديد من الأصوات والحوقلة والأسئلة حول ما جرى ولمن تلك الجثة والتساؤلات المقيتة التي لا تدع حدثًا يمر بهدوء، مما زاد الريبة والقيل والقال عندما اقترنت سيارة الإسعاف بسيارة شرطة فكلتاهما لهما أصوات ومظهر مقبض تزيد الروح انقباضًا على انقباضها.. ازداد عدد الناس أضعافًا مضاعفة.

مراد ينزل من على درج منزله وهو مقيد الأيدي بقيود حديدية وبجانبه عسكري ويتقدمه ضابط وفريق البحث الجنائي، على ملابسه دماء غزيرة وكأن السماء قد أمطرت عليه أمطارًا دموية كسته بالكامل.. وجهه ملطخ بالدماء الحمراء القانية ويداه ترتجف وكأنه ينفض عنها الدماء التي التصقت به.. عيناة جامدة لا يكاد يرى موضع قدمه يُجَرُّ جَرًّا إلى سيارة الشرطة بلا أدنى مقاومة.

في قسم الشرطة التابع للمنطقة التي يقطن بها مراد يقف أمام المقدم عاصم راشد لا يحرك ساكنًا يتحدث معه المقدم ويحاول أن يجعله يتحدث ولكنه لا يجد

أي إجابة منه وكأن شفتاه قد التصقتا ببعضهما للأبد، خبطات على الباب ثم يفتح ليظهر من وراءه العسكري مخبرًا المقدم عاصم أن المقدم عماد بالخارج ويريد رؤيته.. قام من مكانه ليستقبل عماد بترحاب.. لم يلتفت مراد لعماد أو حتى ينتبه لوجوده.. يدخل عماد ليتحدث مع عاصم بضع كلمات يخبره عن صلة القرابة بينه وبين المتهم ويخبره الأول عن حيثيات القضية فيستأذن منه أن يجلس معه بعض الوقت فيوافق رغم أنه غير مسموح بذلك سوى للمحامي الخاص بمراد الذي كان يقبع بالخارج.

يقف عماد أمام مراد مستفسرًا

- مراد.. ماذا حدث؟؟ أخبرني

لم ينظر له مراد ولم يُجِبه عيناه معلقتان في الفراغ اقتصرت حياته على مجرد أنفاس تخرج وتدخل في خفوت أعاد عليه عماد السؤال مرة أخرى

- مراد.. الموقف في منتهى الصعوبة يجب أن تتحدث.. ماذا حدث؟؟

مرة أخرى لا يوجد أي رد فعل فقد حَوَّلَتهُ الصدمة إلى صنم ليس هناك أي فائدة منه

أثار أعصاب عماد فأمسكه من كتفيه وأخذ يرجه بعنف شديد قائلًا:

- تكلم.. ليس هناك داعٍ لسكوتك.. أخبرني أنا.. موقفك في القضية سيجرك إلى حبل المشنقة.. لا يوجد أي أثر لأي بصمات غيرك على سلاح الجريمة.. كل شيء سيضيع وستقضي على أبويك.. وإخوتك.. ومستقبلك الذي عانيت لتبنيه.. تكلم تكلم أرجووووك.

لم يتكلم مراد ولكنه سقط من بين يدَيّ عماد بلا حراك مغشيًا عليه في وسط ذهول من الجميع الذين دخلوا على صوت ارتطام لجسد مراد على الأرض، لم يكن عليهم سوى تحويل مراد إلى المشفى تحت الحراسه لحين تعافيه واستكمال التحقيقات.

***

وصلت الجثة الملفوفة في غطاءها البلاستيكي القاتم إلى مصلحة الطب الشرعي.. استقبلها حازم.. لم يكن يعلم ماذا هناك.. أم من تكون صاحبة الجثة ولكنه ربثما فتح بيناتها قرأ اول اسم لها " فريدة ".. الذهول ملأ عينيه عند رؤيته للاسم ولكنه لم يُطِل في ذهوله فقد قفزت نيرة في عقله هامسة له قائلة " نعم إنها هي.. لا تطل في التفكير.. هي طرف ممن ظلموني رغم إننا متشابهتان في العديد من التفاصيل "، زفر في حنق قائلًا.. " ما هذا الهراء ".

كان يوم المفاجآت على الجميع.. الجميع وقع تحت وطأة الصدمة.. لم أكن أعلم أن تلك المرأة ستأتيني على هيئة جثة، العمل بها كان شيء مرهق ومؤلم.. ازداد حنقي على نيرة وبدأت أكرة رسائلها التي تبعثها لي من حينٍ لآخر.. كَمّ العذاب الذي على جسد فريدة لا يمكن لأحد أن يتخيله.. فتاة عشرينية جسدها مليء بالجروح القطعية وحروق متفرقة في الجسد.. حروق من الدرجة الثانية في كعب القدم.. دبابيس مغروسة في الكاحلين.. جرح قطعي غائر في الرقبة أدى للوفاة.. ما كل هذا!!!!، وكيف أتت بها إليّ نيرة وهل للأموات أن يتحكمو في مصائر الأحياء.. ترى هل هي حقيقة أم أن عقلي بدأ يحيد عن مساره، في تلك اللحظة كنت أحتاج إلى أن يتم اختطافي من بين كل تلك التساؤلات القاتلة التي كادت تقتلعني.

وكأن عماد استجاب لندائي فوجدت اسمه يتردد على شاشة هاتفي في صمت.. أجبته بوهن بالغ ولم أجد حاله أفضل مني.. ما ذاك اليوم الذي اجتمع الجميع على نبرة صوت واحدة معبأة بوهن مقيت يعتصر القلب، فاجأني بكلماته المتقطعة وفاجأني أكثر عندما أخبرني أن الراقدة أمامي هي.. فريدة زوجة شقيق زوجته.. توقفت الكلمات في حلقي لم أستطع حتى أن أعزيه وجدتني مبهوتًا ولكنه تماسك قليلًا ثم سألني عن حالتها.. لأول مرة وجدته لا ينعت الحالة بالجثة وجدته يسألني قائلًا:

- كيف وجدت فريدة؟

تعجبت منه وهو الذي كان دومًا يلوم عليّ أنني لا أنعت حالات الجرائم بالجثث قائلًا:

- أراك تنعتها باسمها.

- لم أكن أعلم أن وقع الكلمات يكون ثقيلًا عندما يكون الأمر خاص بنا.. من الصعب أن تكون قد رأيت إنسانًا له روح واسم وحياة وجزء من عائلتك ثم في لحظة عندما يتجرد من روحه يتركه اسمه وكل شيء خاص به لنختصره في كلمة جامدة من ثلاثة أحرف " جثة ".

- أتفهم ذلك.. حالتها ليست بجيدة على الإطلاق

قصصت عليه حالتها كاملة.. وجدته ازداد تأثرًا ولكن كان عليه أن يجيبني على جزء ولو بسيط من تساؤلاتي التي تتقافز في عقلي كقرود غير مروضة تهش بوحشية في جمجمتي لم أتردد وسألته.

- الحالة التي عليها فريدة تنبئ أنها تعرضت لتعذيب قاتل.. هل كان هناك مشكلات بينها وبين زوجها؟؟

- لا أعلم يا حازم بالفعل لا أعلم كل ما هنالك أن الفترة الأخيرة تعرضت فريدة لإجهاض وكانت في حالة إعياء تام على حد ما أخبرتني به سارة.. في ذاك الوقت كنا منشغلين بقضية نيرة وريثما انتهيت منها قصت لي سارة عما حدث لفريدة.. شعرت حينها بشيءٍ ما ولكنني لم أعره اهتمامًا أو تجاهلته لا أعلم حقًا.. لم أكن أعلم أن الأمور ستكون بهذا الشكل.

- حسنًا اهدأ قليلًا حتى نستطيع أن نفكر.. حتمًا سارة تعلم شيئًا ما.. فهو أخوها المقرب.. ألم تخبرك بشيء؟؟

- سارة في حالة انهيار تام.. لا تقوى حتى على الحديث.. كل ما تريده أن ترى أخوها الراقد في المشفى تحت الحراسة.

- مشفى!! لِمَ.. ماذا حدث؟

- إعياء تام.. ذهبت إليه فوجدته في حالة صدمة ولا يتحدث وعندما ضغطت عليه ليخبرني ما قد حدث سقط مغشيًا عليه.

- حسنًا.. ليس علينا سوى انتظاره.

- الانتظار سيقتلني أيضًا.. سارة لا تكف عن البكاء كل الأجواء المحيطة كئيبة.. لا أعلم ماذا أفعل.. يعتقدون أنني أستطيع أن أخرجه من تلك الورطة.. يالعجزي عن كل شيء حتى أن أخفف عن زوجتي لا أستطيع.

- هَوِّن عليك يا عماد.. أعطها وقتها في الحزن.. حتمًا سيأتي ذاك الوقت الذي ستنقشع فيه سحابة الحزن لتترك سماء روحنا منداة بدموع كانت هنا يومًا ما.

صمت عماد.. وأنا أيضًا صمتت.. لم يكن لدي أي شيء أنبس به.. لا أعلم لماذا تأثرت بهذا الشكل.. دومًا ما أتأثر بالفعل للحالات التي تتمدد أمامي وأرتبط بهم ولكن الآن لا أعلم ما كل تلك الصلات التي اجتمعت لتلف تلك الشبكة حولي.. أشعر بإنهاك يجتاحني أنا أيضًا.. طلبت من عم أحمد أن يعد فريدة للعمل بها ويعيدها إلى ثلاجتها التي اتخذت رقم (6).

***

لم تكن سارة فقط التي في حالة الانهيار التام.. بل أيضًا علياء التي ما أن علمت بالخبر حتى لم يتحمل جنينها انقباض روحها وتقلصات رحمها من الحزن الذي دق وتدة بمنتهى القوة بداخلها فكتب القدر تاريخ مولد تلك الصغيرة في يوم مغادرة فريدة الحياة.

تلك هي الحياة أرواح تُزهَق وأجسادٌ صغيرةٌ تبث فيها الحياة من جديد.. الحياة تولد من رحم الموت، يقتلنا الموت ولكن نحيا من أجله.

جاءت فريدة صغيرة بَثَّت بها البراءة من جديد.. احتضنتها حاضنة زجاجية لقدومها في غير موعدها بشهرين.. كان هذا رأفة بعلياء التي امتلأ ثديها بحليبٍ عَكَّرَهُ الحزن.

حاول أحمد وأبيها كثيرًا أن يخففا عنها كل ما هي فيه وأن يؤزراها في حزنها ولكنه الفقد وحش قاتل ينهش بالقلوب

حينما تفقد صديقًا تشعر أن روحك قد فارقتك نعلم أن الفقد لا يستمر طويلًا

وأن النسيان لا يترك أحدًا إلا وقد دق بمطرقته على رأسه لتستمر الحياة ولكن يظل هناك جزء خاوٍ في الروح يخبرنا أنه كان هنا أحد ما وتركنا وحدنا.. وحدنا للأبد.

توالت المصائب الواحدة تلو الأخرى.. غادة نقلت للمشفى أيضًا هاجمتها نوبات الصرع التي تجتاح عقلها وكان الويل ويلان على أبيها وأمها ولكن الدموع كانت تسقط في صمت تحفر وديانها في هدوءٍ قاتل على الوجوه بلا أي حيلة فقط لتخبرنا أنه علينا الصمود من أجل من يحتاجوننا في الحياة.. علينا تجاهل الحزن بقلوب منكسرة من أجل أن نقف مُعْوضجِّينَ بجانب من يحتاجنا برغم ذلك الاعوجاج الذي ألَمَّ بروحنا بعدما كسرت بعنف ولا تجد أرواحنا من يقف بجانبها ويجبر كسرها سوى – الله - .

***

obeikandl.com

(28)

بعد مرور بضعة أيام على حجز مراد في المشفى بلا حراك.. تتعافى صحته بفعل بعض المحاليل التي تقطر برتابة في أوردته تلقمه الحياة رُغمًا عنه، ولكن لا يزال لسانه ساكنًا لا يتحرك وشفتاه قابضتان عليه بلا حراك.. يأبى الحديث.. حتى بعد استكمال التحقيقات لم تسفر عن شيء لصمته المتواصل، لم يكن هناك شيء بيد عاصم سوى أن يأتي بتصريح من النيابة ليعرض على المختصين للبت في حالته النفسيه بعد كتابة محضر روتيني لا يفيد بشيء بناءًا على شهادة الجيران الذين كانوا قد سمعوا صوت صراخ وشجار في الأيام التي سبقت الحادث نَصَّ المحضر على بضع كلمات تفيد أنه يوجد خلافات زوجية أدت إلى جريمة القتل، تم تحويل مراد من مشفاه إلى مشفٍ آخر.. مستشفى العباسية للأمراض النفسية والعصبية ليعرض على لجنة ثلاثية للبَتّ في حالته إن كان واقعًا تحت صدمة نفسية أم أنه مُحجِم عن الحديث بإرادته.

بعد مكوثه يومان في العباسية تم عرضه على الأطباء المختصين وتم تشخيص حالته أنه يعاني اضطراب ما بعد الصدمه وأنه لا يتمارض بل بالفعل كان واقعًا تحت صدمة.. ولكن ذلك لم يبرئه ففي تلك الحالة من الممكن أن يكون قد ارتكب الجريمة وبعد هدوء ثورة القتل انتابته تلك الصدمة.. فظل الحال على ما هو عليه.

***

لم أكف عن مناجاتها.. وهي لم تكف عن إشعاري بالحميمية تجاهها كانت مختلفة في كل شيء. الموت عندما يخيم علينا بعباءته السوداء ليقتلع أرواحنا من مكانها يترك أعيننا شاخصة مرتعبة مما رأت من الهول الذي داهمها ولكن فريدة عينها كانت تقطر دفئًا أو حزنًا برغم إغماضهما ولكن ذلك كان إحساسي تجاهها في تلك اللحظة.. تركت روحي تسبح مع روحها.. كنت على يقين أنها سترشدني عندما تطمئن لي وتسكن إليّ.. انقطعت نيرة عن المجيء إليّ وكأن روحها قد استراحت لتصفية حسابات القدر ولمجرد وفود ساكنة أخرى تسكن الثلاجة التي تجاور ثلاجتها.. وتقبع على نفس منضدة التشريح التي توسدتها أيامًا طويلة، لا أنكر ربما كنت حانقًا عليها بعض الشيء ولكن كنت على يقين أن المقادير لا يمكن اللعب معها أو التلاعب بها حتى لو كانت من أرواح كانت تسكن في أعتى خلق الله – الإنسان- تظل فريدة لغزًا لا أعلم ماهيته.

أتركها وأخرج من غرفة التشريح لأدخن سيجارة يتيمة كانت تقبع بداخل علبتها.. أتابع الدخان المتصاعد منها في هدوء بعدما أشعلتها في ملل لا متناهي وأسحب أنفاسها بحنوٍ بالغٍ حتى لا تنتهي بسرعة خاطفة فأقبع تحت وطأة احتياجي للنيكوتين ويطير عقلي معه.. لا أعلم في ذاك الوقت وأنا أتابع الدخان الأزرق مع ضوء الشمس الذي ملأ أجوائي وذرات الغبار التي تتطاير من خلالهما أن ما رأيته حقًا أم لا.. ولكن كان عندي يقين بكل ما أراه..

فريدة على فراشها وأمامها رجل يمسك بيده سكينا ينحرها كما تنحر الشاة الدماء تتطاير كذرات الغبار.. كأني أرى المشهد بالتصوير البطيء كل شيء تشكل أمامي على هيئة تلك الذرات المترامية أطرافها في دخاني وأشعة الشمس التي تلفه.. تجمعت الذرات على هيئة سكينًا ويد خشنة تنبيء أنها لرجل وفريدة كانت واضحة وضوح الشمس في هيئتها.. خشيت أن تطالني الدماء المنبعثة من شريانها فانتفضت فسقطت السيجارة من بين إصبعيّ كادت أن تحرقني.. انحنيت لألتقطها وأنا أتابع شعلتها فلم أَرَ سوى تلك النيران المتوهجة تغرس في جسد تلك المسكينة تمالكت

ارتعاشي وأمسكت بسيجارتي ونظرت لها مليًا ثم التقمتها بين شفتيَّ فكان ذلك النفس الأخير الذي أسحبه منها وذهبت سدى مع خيالات جثتي التي تواطأت لتنهي جرعة تدخيني في غمرة رحلة الزمن الذي تنتابني من حينٍ لآخر.

هل بالفعل مراد قتلها أم ما معنى الرؤى التي تنتابني.. تراه يعذبها بتلك الوحشية.. كيف له أن يفعل ذلك!!، عدت من جديد إليها أسألها وكأنها ستستجيب إليّ وتحاورني "لِمَ يفعل بكِ ذلك؟!".. فقفزت كلمة واحدة في رأسي بصوتٍ متحشرج يغلب عليه الموت "الخيانة"، لم أصدق أنها استجابت.. ولكنه ما حدث صدقتها لأن الأرواح لا تكذب فهرعت إلى هاتفي أحادث عماد الذي كان في حالة يرثى لها.

***

انقلب كل شيء حول عماد.. سارة في حالة بكاء متواصل لا تعلم ماذا تفعل ولا هو يعلم كيف يساعدها لم يستطع أن يفعل شيئًا سوى أن يتحايل على القانون ويساعدها لتلتقي بأخيها القابع في العباسية.

ذهب معها لتلتقي به كانت تظن أن مقابلته ستغير شيئًا مما هو عليه ولكنها وجدته هادئاَ كالصنم لا يحرك ساكنًا.. أصابها الشك تجاه ما هو فيه تراه فعلها!!.

الصمت يزرع بذور الشك بداخلنا يجعلها ترمي بجذورها في تربتنا برحابة عندما لا نجد من ينفي تلك الشكوك التي تكاد تقتلنا هكذا كانت سارة لا تعلم ما حدث.. مراد كان متعاطفًا مع فريدة ولكن كان بداخله خوف على كل شيء مظهره الاجتماعي ووضعه ومستقبله ولكن أي غباء هذا الذي يجعله يرتكب تلك الجريمة ليتخلص منها ومن ثم يقبع في ذلك المشفى الذي سيلف حول رقبته حبل المشنقة لا محاله إن ظل على حالته تلك، أم تراه الشيطان هيأ له أنه يفعل الصواب فقتلها واستراح من العذاب الذي يسكن بداخله ومعه، أم اليأس تملكه وقرر أن يخسر كل شيء في لحظة جنون اجتاحته.. أرهقها التفكير حد الموت استجدته متوسلة وهي تمسك بيديه.

- أرجوك لا تصمت هكذا.. أرِحني مما أنا فيه الأفكار تكاد تقتلني تحدث لا

تظل جامدًا هكذا لا أتحمل أن أفقدك، أبوك وأمك وأخواتك في حالة يرثى لها يكاد الموت يختطفهما مما أنت فيه أرجوك تحدث.

لم يتحدث ولكن جاءها صوت عماد خافتًا قائلًا لها "لا نستطيع أن نمكث أكثر من ذلك.. ربما مع العلاج تتحسن حالته.. أما الآن فلا معنى لوجودك.. لو كان يريد أن يتحدث لتحدث".

انصاعت لكلماته واستلمت لجذبه لها في هدوء وعيناها معلقتان بمراد الذي كان ينظر للفراغ لا يشعر بشيء مما حوله لا يرى سوى الدم في كل مكان.

يقفان بالخارج مع الطبيب المعالج لحالة مراد يستفسران منه عن حالته فيخبرهما بوضعه المرضي وأن جلسات العلاج ستستأنف ريثما يسمح بذلك بعد أن شخصت اللجنة الثلاثية حالته وربما يستجيب ويتحدث بعدما يكتسب الثقة التي يحتاجها تجاه معالجه وطمأنهم أن لا يقلقوا.

حتى مع تلك الكلمات التي لا تحمل أي معنىً للاطمئنان يفتك بنا القلق ويمزقنا فلا قيمة للربتات مع جسد تهتك لم يعد يشعر بها كربتات اطمئنان ولكنه يشعر بها نكنًا لجروح اخترقت الروح بلا هوادة.

تركا المستشفى بخطواتٍ وئيدة لا تحمل بداخلها سوى الخوف من المجهول فإذا بهاتف عماد يدق ليرى اسم حازم على شاشتة فينظر إلى سارة ويشفق عليها أن يجيب هاتفه وتستمع إلى تفاصيل لا يريد أن تسمع كلمات مترامية تزيد من اشتعال قلبها أكثر مما هي عليه فيضغط على زر إلغاء المكالمة ويضع هاتفه من جديد في جيبه ويستقل سيارته ويعود بها إلى منزلهما وما أن اطمأن عليها ذلك الاطمئنان الصوري.. حتى تركها وعاد إلى عمله ولكنه في طريق عودته حادث حازم ليعلم منه أي تفصيلة تكشف له كل تلك الألغاز فلم يعد الأمر يتعلق بقضية هو يحقق بها فلم يكن هو محققها ولكن ريثما يكون الأمر شخصيًا فالتفاصيل التي تكشف تصبح خنجرًا يدق بنصله نياط القلب ولا سبيل إلا أن نتمسك بنصال تلك الخناجر فقط.. لنستريح حتى وإن كانت جروحه تدمينا.

لم يصدق عماد أن يكون مراد خائنًا لزوجته فأول كلمة قالها لحازم

- ما هذا الجنون.. ألا ترى أن ذلك ليس منطقيًا.. إن كان هو خائنًا فالأولى أن تقتله هي؟!

ارتفع حاجبي حازم من صدمته من تبريرات عماد قائلًا:

- عماد ماذا تقول!! الخيانة دافعًا للقتل من الطرفين.. كن عادلًا ليس معنى أن مراد بينك وبينه صلة قرابة أن تبرر له ما قد فعل، هناك العديد من الاحتمالات ربما أراد أن يتخلص منها ليستكمل حياته مع من كان معها، أو ربما كانت تريد قتله فحدثت مشاجرة بينهما فحدث ما قد حدث.

- ولِمَ لَم يُطَلِّقها ويستريح ويستكمل حياته بشكل طبيعي بدلًا من كل تلك المتاهات، لِمَ لَم يهرب.. أعتقد أنه تحليل غير منطقي.

- لا أعلم حقًا.. ولكن تلك هي الإشارات التي جاءتني منها.

صرخ في الهاتف معبرًا عن الغضب الذي اجتاحه قائلًا:

- تبًا لك ولإشاراتك التي ستصيبني بالجنون.. كنت دومًا أثق بها ولكن الآن لا تحمل أي نوع من المنطق.

- حسنًا اهدأ لا داعٍ لكل هذا الانفعال يجب أن نفكر في هدوء.. فأنا أيضًا الحيرة تفتك بي كنت أريد أن أفرد معك كل التفاصيل لا أن تهاجمني.

- أعتذر ولكن..

قاطعه حازم قائلًا:

- لا عليك سنتحدث لاحقًا.

أغلق حازم الهاتف وكل منهما يسبح في ملكوت خاص به عماد لا يستطيع تصديق ما قد قيل له للتو أما حازم فقد ساورته الشكوك مع افتراضات عماد.

تبًا ما هذا الهراء تراه خداعًا؟!! لا أحد يعلم.

***

(29)

خبر مقتل فريدة انتشر كالنار في الهشيم.. بعض الصحف كتبت (مانشيت) بعنوان دكتور جامعي يقتل زوجته نحرًا، ربما كان خوف مراد من فضيحة أن زوجته تعاني من مرض نفسي تجسد بأعتى صورة ولكن الآن هو منفصل عن العالم الخارجي فأصبحت الفضيحة ملتصقة بأهله.. لا يزالون منكمشين على أنفسهم من هول ما حدث الحيرة تفتك بهم تراه فعلها أم أنها لعبة القدر.

سارة بإيمانها أنه لم يفعلها برغم كل شيء صرح لها به لم تكن تعلم حدود مرض فريدة أو إلى ماذا سوف يؤدي بها وبرغم مرضها إلا أنها لا تستطيع أن تجزم أنها قد فعلتها لا يزال هناك العديد من الأسرار مظللة باللون الأسود فتجعل من حل ذاك اللغز كالكلمات المتقاطعة يجب أن يكون عندك ولو مجرد خيط لتبدأ البحث عن الهدف المنشود وتكتمل الصورة.. لامت نفسها كثيرًا أنها لم تسأل مراد عندما حدثها عن فريدة وضرورة عرضها على طبيب نفسي أنها لم تساله من هذا الطبيب ربما كان أفادها أن تذهب إليه ولكن لا يفيد البكاء على اللبن المسكوب.. استسلمت تمامًا للمقادير التي تُسَيِّر كل شيء كيفما تشاء وهي على يقين أن الله سوف يكشف الغمة عما قريب إن كان مراد مظلومًا أم لا تركت روحها تنساب بين يدي خالقها برضا تام عما سوف يحدث أو ما قد حدث.

بعد مرور الأيام على أي فاجعة يحدث أن تتوقف عن البكاء وتهدأ وتبكي في صمت.. بكاء القلوب مميت ولكنه من جديد.. الاعتياد حليف دائم حتى في الفجائع.

***

الدكتور أحمد.. لا يزال تحت وطأة انشغاله بوليدته وعلياء لم يكن يشغل باله سواهما لم يكن ليعلم ماذا حل بمراد أو حتى يتابع ما قد حدث ويحدث ولكن مرة أخرى القدر يضع بصمته في طريقه ويجده أمامه، يفاجأ باتصال من عماد الذي تربطه به علاقة صداقة ولم يلتقيا مذ زواج مراد.

الحياة أحيانًا تضعنا أمام مصادفات وَلِصِغَرِ تلك الحياة تجدنا نلتقي بدون موعد لم يعطِ عماد فرصة للقاء الأصدقاء سأله عن حالة مراد المتهم في قضية قتل زوجته ويعاني من اضطراب ما بعد الصدمة أفقده النطق، في بادئ الأمر ذُهِلَ د. أحمد مما قاله له ولكن عماد لم يترك مجالًا للمفاجأة فقد كان يحتاج لرأي يثق به لم يخبره أحمد عن أي شيء ولا أنه كان قد التقى بفريدة من قبل ولكنه ترك كل شيء للصدفة البحتة حتى يرى مراد ويتحدث معه، لم تكن الطريقة مهمة إن كانت قانونية أم لا فكل شيء يسير بالنفوذ حتى وإن كان تجاوز القانون مشروعًا بروحه وليس بتشريعاته المسنونة في كتب تدرس لطلابها.

لا تزال الصدمات تجتث الأمل من دواخل من يتمسكون بالحياة بقوة ويعبرون عن مبادئهم أن الحياة يجب أن تستمر.

***

فريدة تلعب لعبتها معي بلا هوادة تأتي رسائلها لي واضحة وكأنما هي تبث إرسالًا موجهًا لا يخطئ هدفه أبدًا.. كل شيء تبعثه لي كاملًا مراد بيدة سكينًا ويحد من نصلها.. دموعها التي لا تنقطع في كل رسالة وكأنني أشاهد فيلمًا عالي الجودة.. لم يكن سيفيد شيئًا تقريري الشرعي حتى عن علامات التعذيب التي تجتاح جسدها في كل مكان حتى الكتابات المتباينة الأحجام والمختلفة في معانيها لم أكن أعلم عن ماهيتها شيئًا تارة أرى تواريخًا وتارة أخرى أرى رسومًا ولكن ما كان واضحًا هو كلمة دومًا كتبت بخط كبير " الشياطين " لا أملك تفسيرًا لكل ذلك فتركت روحي لإشاراتها مما جعلني أبني تفاصيل تلك الجريمة وأكتب تقريرًا أن الوفاة تمت عن طريق الذبح بعد تعذيب وحشي للجثة.

كادت النيران تلفحني من كل جانب لم أكن مرتاحًا حتى لذلك التقرير ولكنني لم أشعر بالإختناق يومًا مثلما شعرت مع – فريدة - ، غريبة هي أحيانًا أراها ملاكًا أوشكت الأجنحة أن تنبت لها وأحيانًا أخرى أرى علامات الحنق والحقد على مُحَيَّاهَا الساكن بفعل الموت. أرهقتني بشدة ولم أعد أستطيع أن أفكر.. أشعر بالعجز التام.

أودعتها ثلاجتها وأنا قلبي يكاد يخرج من مكانه من كثرة الضيق الذي تملكني لا أعلم سببه ولماذا تحتلني كل تلك المشاعر المقبضة، أردت فجأة أن تودع لمقبرتها وكانت تلك المرة الأولى التي أشعر فيها بذلك ربما لعذاب روحها أو أن عذابها انتقل لي لا إراديًا.. حقًا لا أعلم.. كل ما أعلمه أنني أريد أن أنتهى وتنتهي تلك القضية قبل أن أصاب بالجنون الذي كاد أن يفتك بي.

***

يرتب عماد لقاء بين د. أحمد ومراد بشكل ودي بينه وبين الطبيب المعالج له، كان الأول مشحونًا تجاه مراد من آخر مقابلة له معه التي لا يعلم عنها عماد أي شيء لم يرفض أحمد أن يحضر عماد المقابلة تمامًا دخلا سويًا وكان شرط الطبيب المعالج أن يحضر المقابله فدخل ثلاثتهم على مراد الذي كان يقف قبالة النافذة في عالمٍ آخر.. اقترب منه د. أحمد ووقف بجانبه يتحدث في خفوت قائلًا:

- ألم أقل لك أن حياتها في خطر؟!

لأول مرة يلتفت مراد لمحدثه وربما رآه انسابت دمعة صامتة من عينه وأحجمت الأخرى عن نزف الدمع المكتوم بها والتفت من جديد إلى النافذة فاستطرد الأول مكملًا.

- هل أفادك الآن وضعك الاجتماعي الذي كنت تريد أن تحافظ عليه لقد تهدم كل شيء مستقبلك انتهى وماتت فريدة أو ربما أنت قتلتها، أرجح أن تكون أنت من قتلها أو أنني متأكد من ذلك ليس هناك مكان للشك لقد قتلتها لتتخلص من كل ما أنت فيه ولكنني لم أكن لأتوقع أن تكون بمثل هذا الغباء، اعتقدت أنك ربما تكون قادرًا على ارتكاب الجريمة الكاملة لا أن تقتلها وتظل بجانبها هكذا.. أخبرني

ماذا أفادك القتل.. كنت اتركها لتتلقى علاجها بهدوء.. بدلًا من أن تجهض كل شيء بمنتهى البلاهة.

ظل يضغط عليه ومراد صدره أصبح يغلي ووجهه احتقن بشدة ثم التفت إليه بعنف قاتل فأمسك برقبته وأسندة إلى الحائط مما جعل الطبيب المعالج وعماد يتدخلان لإفلاته من قبضته وريثما أفلت أخذ أنفاسه بصعوبة ثم أكمل بصوتٍ متحشرج.

- لا يوجد هناك شيء يثنيني عن يقيني أنك من قتلها أيها المجرم المتحاذق.

هجم عليه من جديد مراد ولكن في تلك المرة كاد صراخه يحيي الأموات من قبورهم ثم خرجت الكلمات منه بلا تفكير كانت كالسيل المحجم خلف سدٍّ منيع وريثما انهار السد خرج الماء ليغرق كل شيء ويصيب الجميع بالصدمة.

- لم أقتلها لم أقتلها، كنت أحبها بملء روحي أنا من قُتلت أنا من تدمرت حياتي بعدها هي كانت الأمل الوحيد الذي أحيا من أجله لم أؤذها يومًا كنت أريد أن أعيش معها ما تبقى لي من حياة أحببت الحب من أجلها ولكنها هي من قتلتني قتلت كل شيء.. على ماذا تحاسبني هل من الخطأ أن أحب نفسي مثلما أحببتها وأن أخاف على مستقبلي مثلما تملكني الخوف عليها، كادت الصراعات تقتلني ولكنها سارعت بقتل كل شيء.

عاد بذاكرته للوراء وانهمرت دموعة بعدما سقط أرضًا وكأنه يقرأ تشهده الأخير ليعلن عن نهاية صلاته وهو يقص كل ما حدث.

" لم أكن أعلم ما تفعله بنفسها امتنعتُ حتى عن معاشرتها ولم يكن باديًا عليها أي شيء مما وجدتها عليه ولكن في ذاك اليوم شعرت بقلبي ينتفض من مكانه لا أعلم ما السبب.. كان ذلك بعد مرور أسبوع على زيارتك لنا ولكنني لم أكن أعلم أن التطور سيكون بهذه السرعة، كان كل شيء سريعًا وقاتلًا في نفس الوقت.

قادني قلبي إليها وأيقنت حينها أن القلب هو مُحَرِّكُ كل شيء، فتحت باب الغرفة في هدوء وكان كل شيء هادئًا حتى نظراتها إليّ.. كانت تنتظرني فعيناها كانتا معلقتان

على باب الغرفة.. كانت تمسك بالسكين وتسلطه على رقبتها وعلى وجهها ابتسامة هادئة لا أستطيع نسيانهاولا أذكر يومًا أنني قد رأيت مثل تلك الابتسامة على شفتيها قط، لم أستطع أن ألحق بها فعندما التقت عينانا كان قد سبق السيف العزل وبدم بارد حركت نصل السكين على رقبتها من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين في سرعة تامة وعيياها لا تزالان معلقتان بي وهي تراني وأنا أهرع إليها.. هرولت بملء ما فيَّ من طاقة مستنفذة لأمسك بالسكين الذي كان كمقصلة استجابت لأمر حاكمها بنفاد الحكم في المعدم أخذتها بين أحضاني أحاول أن أسد اندفاع الدماء من شرايينها بجسدي ويدي شعرت بانتفاضة الموت تزلزل أركاني جسدها كان يرتعش بشدة وصوت حشرجات الموت تفتك بي.. صرخت وصرخت وهي تنتفض بين يدي والدماء كخراطيم تغرقني شعرت بكل شيء لزوجة الدم وسخونته ورائحته التي لا تزال تملأ أنفي والظلام الذي خَيَّمَ على روحي لا أعلم ما ماهيته هل كان الحزن أم أن شبح الموت لا يزال كائنًا يغطينا.. تُرَى لم يتلون الموت دومًا باللون الأسود فريدة تلك الفراشة الزاهية ألوانها كان يجب على الموت أن يرتدي عباءته البيضاء عندما يقتلع روحها.. أم ربما لأنها أزهقت حياتها بنفسها.. لا أشعر بشيء بعد كل ذاك الصراخ الذي أحرق حلقي واقتلع قلبي من مكانه وينبض بخفوت ينتظر الموت "

صمت مراد بعدما اجتَرَّ كل ذكرياته القاسية على قلبه، لم يكن على الطبيب المعالج أن يفعل شيئًا سوى أن يحقنه بحقنة مهدئة ليستلقي بعدها في سُبَاتٍ بين الحياة والموت روحه تائهة لا يعلم لها مستقر، ترك الجميع يلهث مما قد قيل للتو وبينهم نظرات صامتة جامدة كُلٌّ يفكر في شيء ولكن بالنهاية الخيوط حتمًا ستتجمع لتشكل حبلًا يجذب الجميع من تلك الهُوَّة التي لا قرار لها.

خرج عماد مع د. أحمد وهو كالأبله لا يكاد يفهم شيئًا ثم باغت الأخير قائلًا:

- ممّ كانت تعاني فريدة فعليًا؟
- كانت تعاني الفصام
- هل تقصد أنها كانت تمتلك شخصيتين؟؟

نظر إليه ضاحكًا ثم أجابه

- دعك من هراء تلك الأفلام السينمائية الرخيصة التي لا تبث بداخلنا سوى الجهل، الفصام ليس كما يعتقد الجميع.. هو حالة ذات تاريخ طويل يسبق زمنيًا لحظة حدوثها الظاهري، والواقع أن الفصام يحدث أحيانًا دون توقع وأحيانًا يحدث بعد حادثة ضئيلة الشأن مثلما حدث مع فريدة كانت سجينة داخل عقلها يقتلها الشك الذي زرع بداخلها واحتَلَّ عقلها وليس الفصام هذا النوع فقط فأشكاله وأنواعه وأعراضه عديدة لا حصر لها وتختلف من مريض إلى آخر ولكن في النهاية هو مرض نفسي خطير بكل ما تحمله الكلمة.

صمت عماد.. لم يكن يتوقع حجم المأساة التي يعيشها حاملوها ولكن.. تلك هي الحقيقة _ مرضى لا يشعر بهم أحد _.

***

obeikandl.com

(30)

الليل كان ثقيلًا في دخوله وكأنه سيسحب كل مظاهر الحياة من على وجه الأرض وغياب قمره زاده ظلمة ووحشة اقتلعتني من جذوري ومن خيالاتي ومن إيماني.. شعرت بالخديعة لأول مرة في تاريخي مع الجثث، كنت على ثقة أن الأرواح لا تخدع ولا تكذب، لا أعلم لِمَ فعلت بي ذلك أحاطتني بحبال المكر التي لم أكن أحسب لها حسابًا.. كان ابتعادي عن الأحياء له دومًا مبرراته المقنعة لي والمريحة لقلبي ولكن الآن.. أن أخدع على يد جثة.

وقفت أمام ثلاجتها مليًّا أسألها، لم فعلتِ بي ذلك، لِمَ خدعتِنِي لِمَ أوقعتِنِي في فخ المكر الذي لا ينتهي أخبريني، ولكنها لم تتكلم وكأن من الطبيعي أن تجيبني، نعم إنه الطبيعي معي.. شعرت بذاك الرابط بيني وبين الأرواح يتقطع أوجعتني بحق.

عندما تبني حياتك على معتقد يتغلغل بداخلك وتعيش به وله ومن أجله تؤمن أنه من المستحيل خداعك والتلاعب بك وفي ظل ثقتك المزعومة التي تعتقد أنه لا نهاية لها تأتيك الخيانة من أحد لا تتوقع خيانته حينها تنهار كل معتقداتك وتسحب معها قواك التي تخور فتجثو على ركبتيك لا تعلم أين المفر ومن أين تأتي تلك القوة من جديد.

هكذا كنت عندما جاءني اتصال عماد المباغت الهادم لكل شيء بداخلي لم أكن أعلم التفاصيل ولكنه لم يترك أي تفصيلة إلا وأخبرني بها بمنتهى الدقة حقًّا من كثرة ثقتي بها لم أصدقه لذا طلبت منه أن ألتقي بمصدره الموثوق الذي أتى به (د.أحمد)، لم أكن أعلم أنني كان من الممكن أن أشكك بالأحياء بهذا القدر حتمًا قد

أصبت بالجنون.. ولكنه ما حدث، رتب عماد موعدًا لأتلقي بمصدره جلسنا والريبة تحيطني من كل مكان في بداية الأمر تم التعارف الروتيني المقيت الذي أكرهه.. استقبلته برتابة لَحَّاد يلتقي بالموتى كل يوم وليلة يفتح قبورهم بعد أن يلحدهم ويلقي بهم إلى مستقرهم.. لا تعتقد أنني أبالغ في الأمر ولكن تلك كانت حياتي الجثث وثقتي بأرواحهم فقط لا شيء قبلهم ولا شيء بعدهم.

ابتدرد. أحمد الحديث قائلًا:

- عماد أخبرني أنك تريد أن تراني بخصوص فريدة.
- نعم..
- كما أنه أخبرني عن صلتك بالأرواح وثقتك بهم
- لا أعلم إن كانت الأرواح تستحق ثقتي بعد الآن أم لا
- اعذرني مع عدم اقتناعي بما تقول.. لاستحالته علميًا ولكن لا بأس مما تعتقد.

أدرت دفة الحديث فلم يأتِ ليتحدث عني وعن معتقداتي التي أؤمن بها منذ تخرجت وعملت بهذا المجال قائلًا:

- إذن هل تعتقد أن مراد لم يقتل فريدة؟؟!
- بشكلٍ أو بآخر قد قتلها عمدًا ولكن ليس بتلك الطريقة التي هي عليها.
- هل أتيت لتلقي بالألغاز في وجهي.. لقد أخبرني عماد أن مراد بريء من قتلها
- اهدأ.. لا داعٍ للانفعال.. أرى التوتر يكاد يفتك بتقاسيم وجهك.

بدأ الاختناق يأسر أنفاسي فتكاد تحجمُها عن الخروج.. التقطت كوب الماء الذي أمامي وارتشفت منه بضع رشفات لعلها تعيد لي تنظيم أنفاسي المحتجزة خلف أسوار القلق العاتية ثم خرج الاعتذار من بين شفتي رُغمًا عني بصوت مكتوم.

- أعتذر.. تفضل أكمل.

استند بظهره إلى الخلف هو وعماد اللذان كانا على قدر من الراحة وأنا الوحيد

الذي كنت أحترق داخل بركاني الثائرفي باطني الذي يوشك على الانفجار.. ثم أكمل حديثه بهدوء شديد شعرت أنه مصطنع ولكنها أيضًا خيالاتي، قَصَّ عليّ صلته بفريدة وزوجته التي كانت صديقتها مذ الطفولة ولكنني فوجئت بكل ما قد قاله لدرجة أفقدتني حنقي على تلك المسكينة.

***

تم خروج مراد من العباسية بعد كتابة تقرير أنه قد خرج من صمته ويجب أن يعود إلى سراي النيابة لاستكمال التحقيق معه بعدما جاء تقرير الطبيب الشرعي الذي تم تغيير محتواه من اللهجة العاطفية التي ألصقها حازم به اقتصر على بعض الكلمات الروتينية البحتة بدون إبداء أي وجهات نظر كادت تطيح بحازم إلى المالانهاية وبالطبع تم استدعاء الدكتور أحمد وعلياء ووالدي فريدة لاستجوابهم فيما يخص حالة المجني عليها النفسية بعدما طلب محامي مراد استدعاءهم

وبالفعل خرج مراد من النيابة يستنشق هواء الحرية من جديد ولكن أي حرية تلك التي تكون ظاهرية والقيود تحجمنا من الداخل.. لم يكن مراد حرًا على الإطلاق بل مثله مثل العديد من هذا المجتمع يفتك به الجهل مهما وصل إلى درجات العلم.. لقد تساوى العلم بالجهل فكلاهما يعتبر خلل النفس عارًا يجب أن نتستر عليه كتلك الفتاة التي يوهمونها أن شرفها فقط في عذريتها وحتى وإن اغتُصِبَت تُنعَت بالفاجرة فقط لأنها فقدت غشاء بكارتها حتى وإن لم تمتهن العهر فهذه هي المعتقدات كالخلايا السرطانية تتكاثر وتنمو وتلف بجذور أنفسنا فلا نجد منها فكاك إلا أن نقتلع كل تلك المعتقدات الفاسدة التي تحرق كل معنى للإنسانية.

عاد مراد كالعائد بعد مواته في كهف مائة سنة تلفه الغربة ولكن، الغربة التي جعلته يتيمًا وسط أهله لا يعلم من أين الهروب منها أو ربما استراح لها، ولكنه سيبدأ رحلة جديدة مع.. العلاج النفسي الذي أنكره على – فريدة - ، ربما ما جعله يفعل ما فعل أنه مضطرب نفسيًا فكيف للمضطربين أن يتخذو قرارًا صائبًا.

يمنعنا اضطرابنا من أن نعيش حياة سوية أيًا كانت تلك الحياة.

***

كل شيء كان مبهمًا.. مع أول كلمات لـ د. أحمد.. ولكن تكشف غطاء بصري كمن أتاني الموت فجأة فرأيت كل شيء واضحًا في كلماته المسترسلة في هدوء.

" فريدة تاريخها المرضي يمتد من طفولتها التي لم تكن هَيِّنَة على الإطلاق.. في البداية كانت تشعر بالارتياب من الجميع وأولهم والدها ووالدتها لابتعادهم عنها عاطفيًا.. التواصل لم يكن كافيًا من أجل أن يبني شخصيتها بشكل صحي.. الشك كان ينمو بداخلها في كل يوم وليلة ولكنه لم يطفو على السطح قبيل مراهقتها كان الأمر يعد كالبذرة التي فقط كانت تحتاج إلى المياة التي تنميها لتكبر ثم تكبر أكثر فأكثر لتخرج من داخلها كخيوط اللبلاب تحيط بعقلها بالكامل.. حتى تغلغل بداخلها الفصام فجعلها ترتاب من كل شيء شعورها أن أبواها يحبان أختها أكثر منها وأن نظراتهم لها تحمل اللوم والعتاب بعدما حدث ذلك الحادث لشقيقتها الأصغر منها مما جعلها دومًا تعاني من نوبات الصرع المتتالية.. كانت في قرارة نفسها تشعر أنها المُلَامَة الوحيدة في ذلك الحادث برغم أنه لَم يَلُمهَا أحد.. شعورها الدائم أنها ليست على قدر من المسؤولية يجعلها تحمي شقيقتها من السقوط والارتطام بالأرض في غمرة لهو الطفولة جعل تلك الأشواك تنهش فيها دومًا.

ابتعدت عن أبويها وانعزلت عنهم تمامًا لتهرب من نظرات اللوم التي كانت تعتقد أنهم يرمونها بها في كل وقت.. حتى عندما وصلت للمرحلة الجامعية اعتقدت أن أبوها لا يريد أن يدخلها الجامعة عنادًا معها للومه لها ولكن الحقيقة أنه كان يعلم ما بها من خلل لغرابة أطوارها حتى أقنعه الدكتور ماهر بضرورة أن تستكمل تعليمها فذلك سيفيدها وأنه سيوجهها ويرشدها لما فيه الصواب واختلق فكرة أن تعمل معه لتكون تحت ملاحظته، حتى جاء ذلك اليوم الذي اختلقت فيه تلك الحادثة مع الطالبة التي كانت في معهد التمريض التي تدعى (نيرة).. شعر د. ماهر أن الأمر يتطور معها فكان يعطيها بعض المهدئات على سبيل أنها ستساعدها على التركيز في اختباراتها وزيادة نشاطها من أجل التوفيق بين العمل والدراسة.. بالفعل نجح في أن يقنعها بذلك رغم ارتيابها مما جعل حالتها تستقر نسبيًا.. بعدما اجتازت اختباراتها

ودخل مراد في حياتها أصبح الأمر أكثر صعوبة من ذي قبل.. فلم يعد هناك مبررًا لها أن تستكمل تعاطي تلك العقاقير التي كانت تتعاطاها من أجل التركيز المزعوم.. فتحولت عوالمها إلى كتلة من الارتياب الذي لا ينتهي "

لم أستطع أن لا أقاطعه بعد كل ذلك الحديث المتواصل ففي لحظة التقاطه لأنفاسه قلت له:

- وكيف علمت بكل ذلك، هل كنت تتابع حالتها مذ البداية؟؟

أجابني بهدوء في كلمات مقتضبة وكأنه يلومني أنني قاطعته وأن كل شيء سوف يأتي في موعده ولكنه احتمل سؤالي وأجابني بالفعل قائلًا:

- بالطبع لم يكن الأمر هَيِّنًا لم ألتقي بفريدة سوى مرات قليلة سطحية ولكن الجلسة الوحيدة التي أقمتها معها كانت كفيلة بتركيب قطع البازل لتكوين الرؤية الكاملة للحالة منذ البداية إلى النهاية.

صمتت حينها وتركته يكمل ما بدأه لتستكمل يداه في سحب الغيوم من أمام نور الحقيقه الذي غاب عني.

" تطور شكها مع مراد بشكل مريب وقاتل.. استباحها وتملك منها، في كل حركة أو تصرف لمراد معها كانت تعتقد أنه يفعل ذلك فقط ليضيق الخناق عليها.. بدأ الأمر معها باعتقادها أنه على علاقة بأخته سارة التي هي زوجة المقدم عماد (وأشار إلى عماد).. كان شكًا غير مبررًا على الإطلاق ولكنها أرجعته إلى أشياء كثيرة تواجد سارة معهم في شراء حاجياتهم والتصاقها بأخيها الصغير وفرحتها بزواجه.. كل ذلك تحول إلى شك قتل كل شيء بداخلها، كان مراد يتفاجأ بعباراتها الغير مترابطة وأسئلتها الغريبة مثل.. (لماذا تغيرت!!) كان دومًا يسأل نفسه فيم تغيرت ولكنه لم يجد الإجابة.. هيأ لها أنه يعاملها فقط أمام الجميع بشكل جيد وأنه معها يسيء معاملتها.. حتى إجهاضها لم يكن له يد به فقد أجهضت بفعل علاج كانت تتعاطاه لعلاج معدتها التي كانت دومًا تؤلمها ولم تكن تعلم أن من أعراضه الجانبية أنه يُجهِض.. تحول كل شيء بعد إجهاضها إلى الأسوأ.. إلى أن جلست معها أفضت لي بأن مراد يخونها وأنه

يكرهها وأن الشياطين تضاجعها والكثير من الكلمات الغير مترابطة ولكن في ظاهرها تبدو منطقية.. جلست مع مراد وأخبرته أن حالتها خطر على حياتها ولكنه تردد ولم يتخذ أي إجراء خوفًا من الفضيحة قائلًا: حينها (ماذا سيقول الناس عندما أودع زوجتي مصحة نفسية) ويا ليته تجاهل هراء الناس الذي لا يأتي من وراءه النفع، كان عندها ميول انتحارية واضحة ولكن لم يكن بيدي شيء أن أنتزعها من بين يديه وأودعها المصحة النفسية فكان يجب موافقته على ذاك الإجراء.. لقد شارك مراد في قتلها بتقاعصه عن مساعدتها خوفًا على مستقبله وقد تم ما حدث "

ثم قَصَّ ما قد قَصَّه مراد عليهم في المشفى.. كانت كلماته كالصاعقة على روحي جثمت على صدري فاستندت بظهري على مقعدي أحاول أن أستنشق أيًا من الهواء الذي اختفى فجأة وكأنها اللحظات الأخيرة لي في تلك الحياة ثم قفزت تساؤل على عقلي فرميت به إليه:

- لِمَ خَدَعَتنِي إذن أن مراد هو من قتلها؟؟! هل عندك تفسير لذلك؟

- لا أعلم أخبرتك أن ما تؤمن به لا يوجد له أي تفسير علمي عندي ولكن ربما كان شكها واعتقادها قد انتقل إلى روحها مما جعلها تفضي إلى اعتقاداتها إليك.. لم تخدعك بقصد بالطبع ولكن

قاطعته قائلًا:

- لا عليك البقية أنا أعلمها.. وتفسيرها اتضح الآن في عقلي أعلم أن كل ما يعاني منه الأحياء ينتقل إلى أرواحهم.. لم أعد حانقًا على تلك المسكينة المعذبة روحها ولكنني لازلت أشعر بالتيه بداخلي.

تركتهم بعدما انتهى كل شيء شعرت بإنهاكٍ شديد ومن ثم بعدها اتخذت قرارًا أن أقوم بتلك الإجازة التي أكتب فيها تلك القصة المترامية أطرافها مع جثتان أرهقتني تفاصيلهما حد اللا شفاء نيرة وفريدة التي قتلهما الجهل برغم اختلافِهِما إلا أنهما جعلا بداخلي يقينًا أن هؤلاء المساكين قادتهم الحياة إلى الموت وأفسدت العقائد البالية عليهم حياتهم بعدما ارتكبت في حقهم جريمتها المتكاملة الأركان بلا أي دافع أو

مبرر سوى أن هذا ما وجدنا عليه أباءنا، إنهم وأمثالهم من الملايين كائنات دقيقة غير مرئية لا يحق لهم الحياة بشكل طبيعي.

كفرت بكل ما كنت عليه.. قررت أن أكون أصمًا وأن أعمي بصري عن كل ما أراه أو ستقوله تلك الأرواح التي تقبع أمامي جثثهم على منضدتي الباردة في نظر الأحياء الدافئة على المُسَجِّينَ عليها والمشتعلة أرواحها، تمنيت أن يكون كل هذا محض كذب ولكن لا مهرب من الحقيقة، لم أكن أتمنى أن تكون الحقيقة سببًا في إجهاض آمال جثةٍ في أن يتركها عطب عقلها الحي الذي جعل روحها تتشبع بكل ما عاشت عليه.

تمت
2016\5\11

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

شكر خاص

خالص شكري إلى من دعموني لظهور هذا العمل للنور.. أصدقائي الأعزاء دينا محسن، دعاء خلف، د. كريم درويش، د. حسين السيد، سارة صلاح، محمد البرلسي، حمادة جينيس .

وأولًا وأخيرًا الأب الروحي أ. حسام حسين، شكرًا لدعمك.

obeikandl.com

obeikandl.com

المراجع

- الفصامي كيف نفهمه ونساعده.. تأليف سيلفانور أريتي وترجمة د. عاطف أحمد.

للتواصل مع الكاتبة:

https://www.facebook.com/Alshimaa.abdelaal.333

obeikandl.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikandl.com